بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء السابع والعشرون

سورة الذاريات

من الآية ٣١ حتى نهايتها الآية ٦٠

وسور

الطور - النجم - القمر

الرحمن - الواقعة - الحديد

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧)﴾

قال إبراهيم (ﷺ): ما شأنكم أيها المرسلون؟ قالوا: أرسلنا ربنا لننتقم من قوم مجرمين ـ وهم قوم لوط ـ ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ فيهلكوا تحت الحجارة ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ مخصصة لكل من أسرف فى الشذوذ الحرام ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أمرنا لوطًا ومن آمن معه بالخروج من القرية ﴿فَمَا وَجَدْنَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وهم أهل لوط ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ جعلنا هلاكها عبرةً وعظة للمؤمنين الذين يخافون عذاب ربهم الأليم.

***

﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦)﴾

ثم تقص الآيات عبرًا أخرى للمؤمنين الذين يخافون عذاب العصيان، فقد أرسل رب العالمين موسى (ﷺ) إلى فرعون بآيات بينات ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ﴾ فأعرض وارتكن إلى ملكه ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ تعديًا على الحق وتكبرًا وجحودًا ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ﴾ فألقيناهم ﴿فِي الْيَمِّ﴾ فى البحر ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أتى بما يُلام عليه ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ رفضوا دعوة رسولهم هود فأرسلنا عليهم ريحًا لا تخلف وراءها حياة، أى مهلكة ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ لم تترك وراءها شيئًا إلا جعلته أثرًا،

أى قضت عليه ﴿ وَفِى ثَمُودَ ﴾ الذين رفضوا دعوة رسولهم صالح (ﷺ) ﴿ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ إلى أن يأذن الله بهلاككم ﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ فاستكبروا وعقروا الناقة ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ استأصلتهم صاعقة الهلاك، قرعتهم ورجفتهم ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ ﴾ لم تقم لهم قائمة ﴿ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴾ بل غلبوا ودمروا ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ﴾ رفضوا دعوة رسولهم، فأغرقهم الطوفان ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾.

* * *

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١) كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) ﴾

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ بقدرة ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ قال زغلول النجار: [فى الثلث الأول من القرن العشرين لاحظ الفلكيون عملية توسع الكون التى دار حولها جدل طويل حتى سلّم العلماء بحقيقتها(١)، وقد سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى تلك الحقيقة قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة بقول الحق (تبارك وتعالى): ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾].

---

(١) وانطلاقًا من هذه الملاحظة الصحيحة، نادى كلٌّ من علماء الفلك والفيزياء الفلكية والنظرية، بأننا إذا عدنا بهذا الاتساع الكونى إلى الوراء مع الزمن فلابد أن تلتقى كل صور المادة والطاقة الموجودة فى الكون (المدرك منها وغير المدرك) وتتكدس على بعضها البعض فى جرم ابتدائى واحد يتناهى فى الصغر إلى ما يقرب من الصفر أو العدم، وتنكمش فى هذه النقطة أبعاد كلٍّ من المكان والزمان حتى تتلاشى (مرحلة الرتق).

وهذا الجرم الابتدائى كان فى حالة من الكثافة والحرارة تتوقف عندهما كل القوانين الفيزيائية المعروفة، ومن ثم فإن العقل البشرى لا يكاد يتصورهما، فانفجر هذا الجرم بأمر الله (تعالى) فى ظاهرة يسميها العلماء عملية «الانفجار الكونى العظيم»، ويسميها القرآن الكريم باسم «الفتق»، فقد سبق القرآن الكريم كل المعارف الإنسانية بالإشارة إلى ذلك الحدث الكونى العظيم من قبل ألف وأربعمائة من السنين بقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وتشير دراسات الفيزياء النظرية فى أواخر القرن العشرين إلى أن جرمًا بمواصفات الجرم الابتدائى للكون عندما ينفجر يتحول إلى غلالة من الدخان الذى تخلقت منه الأرض وكل أجرام السماء، وقد سبق القرآن الكريم بألف وأربعمائة سنة كل المعارف الإنسانية، وذلك بإشارته إلى مرحلة الدخان فى قول =

= الحق (تبارك وتعالى): ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩-١٢]

بدايات تعرف الإنسان على ظاهرة توسع الكون

إلى مطلع العقد الثانى من القرن العشرين، ظل علماء الفلك ينادون بثبات الكون وعدم تغيره، فى محاولة يائسة لنفى الخلق والتنكر للخالق (سبحانه وتعالى) حتى ثبت عكس ذلك بتطبيق «ظاهرة دوبلر» على حركة المجرات الخارجة عن مجرتنا، ففى النصف الأول من القرن التاسع عشر، كان العالم النمساوى «دوبلر ـ C. Doppler» قد لاحظ أنه عندما يصل إلى عين الراصد ضوء منبعث من مصدر متحرك بسرعة كافية، يحدث تغير فى تردد ذلك الضوء، فإذا كان المصدر يتحرك مقتربًا من الراصد فإن الموجات الضوئية تتضاغط وينزاح الضوء المدرك نحو التردد العالى (أى نحو الطيف الأزرق)، وتعرف هذه الظاهرة باسم «الزحزحة الزرقاء»، وإذا كان المصدر يتحرك مبتعدًا عن الراصد، فإن الموجات الضوئية تتمدد وينزاح الضوء المدرك نحو التردد المنخفض (أى نحو الطرف الأحمر من الطيف)، وتعرف هذه الظاهرة باسم «الزحزحة الحمراء»، وقد اتضحت أهمية تلك الظاهرة عندما بدأ الفلكيون فى استخدام أسلوب التحليل الطيفى للضوء القادم من النجوم الخارجة عن مجرتنا فى دراسة تلك الأجرام السماوية البعيدة جدًا عنا.

ففى سنة ١٩١٤ م أدرك الفلكى الأمريكى «سلايفر ـ Slipher» أنه بتطبيق ظاهرة دوبلر على الضوء القادم إلينا من النجوم، فى عدد من المجرات البعيدة عنا، ثبت له أن معظم المجرات التى قام برصدها تتباعد عنا وعن بعضها البعض بسرعات كبيرة، وبدأ الفلكيون فى مناقشة دلالة ذلك، وهل يمكن أن يشير إلى تمدد الكون المدرك، بمعنى تباعد مجراته عنا وعن بعضها البعض بسرعات كبيرة؟

وبحلول سنة ١٩٢٥م، تمكّن هذا الفلكى نفسه (Slipher) من إثبات أن أربعين مجرة قام برصدها تتحرك فعلاً فى معظمها بسرعات فائقة متباعدة عن مجرتنا «سكة التبانة»، وعن بعضها البعض.

وفى سنة ١٩٢٩م، تمكن الفلكى الأمريكى الشهير «إدوين هبل ـ Edwin Hubble» من الوصول إلى الاستنتاج الفلكى الدقيق الذى مؤداه: أن سرعة تباعد المجرات عنا تتناسب تناسبًا طرديًا مع بعدها عنا، والذى عرف من بعد باسم «قانون هبل Hubble's Law» وبتطبيق هذا القانون تمكّن «هبل» من قياس أبعاد العديد من المجرات، وسرعة تباعدها عنا، وذلك بمشاركة من مساعده «ملتون هيوماسون ـ Milton Humason» الذى كان يعمل معه فى مرصد «جبل ولسون» بولاية كاليفورنيا، وذلك فى بحث نشراه معًا فى سنة ١٩٣٤م.

وقد أشار تباعد المجرات عنا وعن بعضها البعض إلى حقيقة توسع الكون المدرك، التى أثارت جدلاً واسعًا بين علماء الفلك، الذين انقسموا فيها بين مؤيد ومعارض، حتى ثبتت ثبوتًا قاطعًا بالعديد من المعادلات الرياضية والقراءات الفلكية فى صفحة السماء.

ففى سنة ١٩١٧م، أطلق «ألبرت أينشتاين ـ A. Einstein» نظريته عن النسبية العامة لشرح طبيعة الجاذبية، وأشارت النظرية إلى أن الكون الذى نحيا فيه غير ثابت، فهو إما أن يتمدد أو ينكمش وفقًا لعدد من القوانين المحددة له، وجاء ذلك على عكس ما كان «أينشتاين» وجميع معاصريه من الفلكيين وعلماء الفيزياء النظرية يعتقدون، انطلاقًا من محاولاتهم اليائسة لمعارضة الخلق، وقد أصاب «أينشتاين» الذعر عندما اكتشف أن معادلاته تنبئ ـ رغم أنفه ـ بأن الكون فى حالة تمدد مستمر؛ ولذلك عمد إلى إدخال معامل من عنده أطلق عليه اسم «الثبات الكونى»، ليلغى حقيقة تمدد الكون من أجل الادعاء بثباته واستقراره، ثم عاد ليعترف بأن تصرفه هذا كان أكبر خطأ علمى اقترفه فى حياته. =

= وقد قام العالم الهولندى «وليام دى سيتر ـ William de Sitter» بنشر بحث فى السنة نفسها (١٩١٧م) استنتج فيه تمدد الكون انطلاقًا من النظرية النسبية ذاتها. ومنذ ذلك التاريخ، بدأ الاعتقاد فى تمدد الكون يلقى القبول من أعداد كبيرة من العلماء، فقد أجبرت ملاحظات كلّ من «سلايفر» (١٩١٤م)، و «دى سيتر» (١٩١٧م)، و «هبل» ومساعده «هيوماسون» (١٩٣٤م) جميع الفلكيين الممارسين، وعددًا من المشتغلين بالفيزياء النظرية، وفى مقدمتهم «ألبرت أينشتاين»، ومجموعة البحث العلمى بجامعة «كمبردج»، والمكونة من كلّ من «هيرمان بوندى ـ Herman Bondi» و«توماس جولد ـ Thomas Gold» و«فريد هويل ـ Fred Hoyle»، التى ظلت إلى مشارف الخمسينيات من القرن العشرين تنادى بثبات الكون ـ أجبرتهم على الاعتراف بحقيقة توسع الكون المدرك.

وفى ٨ نوفمبر سنة ١٩٨٩م، أطلقت وكالة الفضاء الأمريكية مركبة فضائية باسم «مكتشف الخلفية الإشعاعية للكون»، وذلك فى مدار على ارتفاع ستمائة كيلو متر حول الأرض بعيدًا عن تأثير كلّ من السحب والملوثات فى النطق الدنيا من الغلاف الغازى للأرض، وقد قام هذا القمر الصناعى بإرسال ملايين الصور والمعلومات إلى الأرض عن آثار الدخان الأول الذى نتج عن عملية الانفجار العظيم للكون من على بعد عشرة مليارات من السنين الضوئية، وهى حالة دخانية معتمة سادت الكون قبل خلق الأرض والسماوات، فسبحان الذى أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

كذلك، فإن التقنيات المتطورة من مثل الصواريخ العابرة لمسافات كبيرة فى السماء، والأقمار الصناعية التى تطلقها تلك الصواريخ، والأجهزة القياسية والتسجيلية الدقيقة التى تحملها، قد ساعدت على الوصول إلى تصوير الدخان الكونى الأول الذى نتج عن عملية الانفجار العظيم، والذى وجدت بقايا أثرية له على أطراف الجزء المدرك من الكون، وعلى أبعاد تصل إلى عشرة مليارات من السنين الضوئية لتثبت دقة التعبير القرآنى بلفظة دخان التى وصف بها حالة الكون قبل خلق السماوات والأرض.

وسبحان الله الخالق الذى أنزل فى محكم كتابه قبل أكثر من ألف وأربعمائة من السنين قوله الحق: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧].

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

تشير هذه الآية الكريمة إلى عدد من الحقائق الكونية التى لم تكن معروفة لأحد من الخلق وقت تنزل القرآن الكريم، ولا لقرون متطاولة من بعد تنزله، منها:

أولاً: إن السماء بناء محكم التشييد، دقيق التماسك والترابط، وليست فراغًا كما كان يعتقد إلى عهد قريب

وقد ثبت علميًا أن المسافات بين أجرام السماء مليئة بغلالة رقيقة جدًا من الغازات التى يغلب عليها غاز الإيدروچين، وينتشر فى هذه الغلالة الغازية بعض الجسيمات المتناهية فى الصغر من المواد الصلبة، على هيئة غبار دقيق الحبيبات، يغلب على تركيبه ذرات من الكالسيوم، والصوديوم، والبوتاسيوم، والتيتانيوم، والحديد، بالإضافة إلى جزيئات من بخار الماء، والأمونيا، والفورمالدهايد، وغيرها من المركبات الكيميائية.

وبالإضافة إلى المادة التى تملأ المسافات بين النجوم، فإن المجالات المغناطيسية تنتشر بين كلّ أجرام السماء لتربط بينها فى بناء محكم التشييد، متماسك الأطراف، وهذه حقيقة لم يدركها العلماء إلا فى القرن العشرين، بل فى العقود المتأخرة منه وعلى الرغم من رقة كثافة المادة فى المسافات بين النجوم، والتى تصل إلى ذرة واحدة من الغاز فى كل سنتيمتر مكعب تقريبًا من المسافات البينية للنجوم، وإلى أقل من ذلك بالنسبة للمواد الصلبة «الغبار الكونى»، إذا ما قورن بحوالى مليون مليون مليون جزئ (١٨١٠) =

= فى كل سنتيمتر مكعب من الهواء عند سطح الأرض، فإن كمية المادة فى المسافات بين النجوم تبلغ قدرًا مذهلاً للغاية، فهى تقدر فى مجرتنا «سكة التبانة» وحدها بعشرة بلايين ضعف ما فى شمسنا من مادة، مما يمثل حوالى ٥٪ من مجموع كتلة تلك المجرة.

ثانيًا: أن فى الإشارة القرآنية الكريمة «والسماء بنيناها بأيد. . .» أى بقوة وحكمة واقتدار تلميحًا إلى ضخامة الكون المذهلة، وإحكام صنعه، وانضباط حركاته، ودقة كلّ أمر من أموره، وثبات سننه، وتماسك أجزائه، وحفظه من التصدع أو الانهيار، فالسماء لغة هى كل ما علاك فأظلك، ومضمونًا هى كل ما حول الأرض من أجرام السماء ومادتها وطاقتها، التى لايدرك العلم إلا جزءًا يسيرًا منها، ويحصى العلماء أن بالجزء المدرك من السماء الدنيا مائتى بليون من المجرات، بعضها أكبر كثيرًا من مجرتنا «درب اللبانة أو سكة التبانة»، وبعضها أصغر قليلاً منها، وتتراوح أعداد النجوم فى المجرات بين المليون والعشرة ملايين الملايين، وتمر هذه النجوم فى مراحل من النمو مختلفة (الميلاد، والطفولة، والشباب، والكهولة، والشيخوخة، ثم الوفاة)، وكما أن لأقرب النجوم إلينا «وهى شمسنا» توابع من الكواكب والكويكبات، والأقمار، وغيرها، فإن القياس يقتضى أن للنجوم الأخرى توابع قد اكتشف عدد منها بالفعل، ويبقى الكثير مما لم يتم اكتشافه بعد.

ثالثًا: تشير هذه الآية الكريمة إلى أن الكون الشاسع الاتساع، الدقيق البناء، المحكم الحركة، والمنضبط فى كل أمر من أموره، والثابت فى سننه وقوانينه، قد خلقه الله (تعالى) بعلمه وحكمته وقدرته، وهو (سبحانه) الذى يحفظه من الزوال والانهيار، وهو القادر على كل شىء. والجزء المدرك لنا من هذا الكون شاسع الاتساع بصورة لا يكاد عقل الإنسان يدركها «. . . إذ المسافات فيه تقدر ببلايين السنين الضوئية»، وهو مستمر فى الاتساع اليوم وإلى ما شاء الله، والتعبير القرآنى «. . . وإنا لموسعون» يشير إلى تلك السعة المذهلة، كما يشير إلى حقيقة توسع هذا الكون باستمرار إلى ما شاء الله، وهى حقيقة لم يدركها الإنسان إلا فى العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين، حين ثبت لعلماء كلٍّ من الفيزياء النظرية والفلك أن المجرات تتباعد عنا وعن بعضها البعض بسرعات تتزايد بتزايد بعدها عن مجرتنا، وتقترب أحيانًا من سرعة الضوء (المقدرة بحوالى ثلاثمائة ألف كيلومتر فى الثانية)، والمجرات من حولنا تتراجع متباعدة عنا.

رابعًا: تشير ظاهرة توسع الكون إلى تخلق كلّ من المادة والطاقة، لتملأ المساحات الناتجة عن هذا التوسع؛ وذلك لأن كوننا تنتشر المادة فيه بكثافات متفاوتة، ولكنها متصلة بغير انقطاع، فلا يوجد فيه مكان بلا زمان، كما لا يوجد فيه مكان وزمان بغير مادة وطاقة، ولا يستطيع العلم ـ حتى يومنا هذا ـ أن يحدد مصدر كلٍّ من المادة والطاقة اللتين تملآن المساحات الناتجة عن تمدد الكون، بتلك السرعات المذهلة، ولا تأويل لها إلا الخلق من العدم.

خامسًا: أدى إثبات توسع الكون إلى التصور الصحيح بأننا إذا عدنا بهذا التوسع إلى الوراء مع الزمن، فلابد أن تلتقى كل صور المادة والطاقة كما يلتقى كلّ من المكان والزمان فى نقطة واحدة، وأدى ذلك إلى الاستنتاج الصحيح بأن الكون قد بدأ من نقطة واحدة بعملية انفجار عظيم، وهو مما يؤكد أن الكون مخلوق له بداية، وكل ما له بداية فلابد أن ستكون له فى يوم من الأيام نهاية، كما يؤكد حقيقة الخلق من العدم؛ لأن عملية تمدد الكون تقتضى خلق كلّ من المادة والطاقة بطريقة مستمرة ـ من حيث لا يدرك العلماء ـ وذلك لتملأ (فى التو والحال) المسافات الناشئة عن عملية تباعد المجرات عن بعضها البعض بسرعات مذهلة، وذلك لكى يحتفظ الكون بمستوى متوسط لكثافته التى نراه بها اليوم، وقد أجبرت هذه الملاحظات علماء الغرب على هجر معتقداتهم الخاطئة عن ثبات الكون، والتى دافعوا طويلاً عنها، انطلاقًا من ظنهم الباطل بأزلية الكون وأبديته ـ *«تفسير الآيات الكونية فى القرآن الكريم»* ج٣ صفحات: ٤١٦ - ٤٢٢ ـ من إصدارات مكتبة الشروق الدولية.

﴿ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا ﴾ مهدناها للاستقرار عليها ﴿ فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ وخلقنا من كل حيوان ونبات، وغير ذلك مما فى علم الله، زوجين ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ قدرة الله فترجعون وتلجأون إليه ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ فأسرعوا إلى جناب الله إنى نذير مبين لكم ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ ولا تشركوا معه إلهًا آخر ﴿ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ولكن القوم لم يتعظوا كما حدث مع الرسل السابقين، فاتهمتهم أقوامهم تارة بالسحر، وتارة بالجنون ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ ﴾ هل أوصى بعضهم بعضًا بهذا القول المجحف؟ ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ بل هم قوم طغاة تشابهت قلوبهم فنطقوا كفرًا.

* * *

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠) ﴾

فأعرض عنهم ولا لوم عليك ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ واستمر فى تذكير المؤمنين؛ لأن الذكرى لا تنفع إلا المؤمنين ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ بحمل الإنس أمانة الخلافة على الأرض، وإقامة الحق ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ كما يحتاج شركاء الباطل الآخرون[1] ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ إن الله وحده المتكفل برزق العباد وهو صاحب القدرة الكلية ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا ﴾ أما الذين كفروا فلهم نصيب من العذاب ﴿ مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ ﴾ من الأمم السابقة ﴿ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ فلا يستعجلون إنزال العذاب؛ لأنه واقع يوم الحساب ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ فويل لهم من يوم الحساب، وما وعدهم الله فيه من العذاب.

* * *

(١) حتى اليوم، يعبد مئات الملايين من البشر فى آسيا آلهة يضعون لها طعامًا وشرابًا، وربما كان لبعض الناس فى إفريقيا والسكان الأصليين فى أمريكا أفكار مشابهة عن الآلهة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ (٨) ﴾

﴿ وَالطُّورِ ﴾ جبل الطور الذى كلّم الله عليه موسى (ﷺ) فى سيناء ﴿ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴾ وكتاب من عند الله، منه التوراة والزبور والإنجيل والقرآن ﴿ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ فى صحف منشورة للقراءة ﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ بالملائكة والعمار والحجّاج، وهو الكعبة بيت الله الحرام ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ المملوء ماء، أو الموقد نارًا؛ حيث إن من عجائب صنع الله أن تحت مياه المحيطات نارًا، كما قال زغلول النجار فى تفسيره العلمى[1]. يقسم رب العالمين بكل هذه الآيات بأن ﴿ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾ عن الظالمين.

* * *

﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) ﴾

(١) انظر «تفسير الآيات الكونية فى القرآن الكريم» جـ ٣ صفحات ٤٦١ - ٤٦٧.

يوم تضطرب السماء اضطرابًا ﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ تزول عن أماكنها ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بيوم الدين ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ الذين هم فى الباطل والزيف يلهون ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ يومها سيدفعون بشدة وعنف إلى النار، ويقال لهم ﴿ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ عندما كنتم فى الدنيا ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ هل لا زلتم تنكرون البعث والحساب وتقولون عن رسلكم إنهم سحرة؟ أم أنكم عطلتم بصائركم فى حياتكم الدنيا لتنعموا بمتعها الزائفة الزائلة؟ أم أن النار حق ﴿ اصْلَوْهَا ﴾ عانوا لهيبها ﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا ﴾ فسواء صبرتم أم لا ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

***

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ(٢٠) ﴾

أما المتقون، فهم يتلذذون فى جنات النعيم بما آتاهم ربهم، ونجاهم من عذاب الجحيم، يتمتعون وأزواجهم حور العين بأطايب المقام والراحة والطعام والشراب، جزاء عملهم فى الدنيا.

***

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) ﴾

والذين آمنوا، واتبعتهم ذريتهم فى الإيمان والعمل الصالح ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ فى الجنة ﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُم ﴾ ما نقصناهم شيئًا من ثواب أعمالهم ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ فلا تزر وازرة وزر أخرى، ومن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ ويتجاذبون فى الجنة فى مداعبة وممازحة أشربة ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ لا يصدر من شاربها لغو ولا كلام آثم ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ يخدمهم غلمان كأنهم لؤلؤ مصون ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ عن

هذا النعيم المقيم وسببه ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ من عذاب الله، حريصين على طاعته ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ تفضل علينا الله ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ حفظنا من نار جهنم النافذة في المسام ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿نَدْعُوهُ﴾ نعبده خوفًا من عذابه وطمعًا في ثوابه ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ﴾ البر كلمة جامعة لأنواع الخير، وهو ـ سبحانه ـ مصدر ومنبع الخير في العالم ﴿الرَّحِيمُ﴾.

***

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤)﴾

﴿فَذَكِّرْ﴾ يا محمد ﴿فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ فلست بما أنعم الله عليك من الرسالة ﴿بِكَاهِنٍ﴾ تفعل ما يفعله الكهنة ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾ كما يتهمونك ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ بل ويقولون يا محمد إنك شاعر، وينتظرون موتك، قل لهم يا محمد ﴿تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ فسنرى لمن تكون العاقبة ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا﴾ بهذا القول المتناقض ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ بل هم قوم مجاوزون الحدود في الجحود والضلال ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ بل يقولون افترى القرآن ﴿بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ ولكنهم في الحقيقة مكابرون بالباطل ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ فليأتوا بقرآن مثله ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾.

***

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)﴾

هؤلاء الجاحدون؛ أخُلقوا من غير خالق؟ أم هم الذين خلقوا أنفسهم؟ ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ﴾ فماذا عن السموات والأرض؟ هل خلقوها كما خلقوا أنفسهم؟ وهذه أسئلة استنكار وسخرية، بل إنهم لا يريدون أن يتذكروا، ويرفضوا ما في فطرهم ومداركهم، ليتبعوا أهواءهم الدنيوية، ويسلكوا سبل الظن وعدم المعرفة تحججًا ﴿أَمْ

عندهُمْ خزائنُ ربِّكَ ﴾ فهم أرباب أم شركاء؟ ﴿ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ ﴾ على الأكوان؟ ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ ﴾ يرتقون فيه حتى يصلوا إلى الملأ الأعلى فيستمعوا لأخبار الغيب، فإذا كانوا كذلك ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ فمن تسمع عليه أن يأتى بحجة واضحة على ذلك ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾ كما كان يدّعى كفار قريش؛ لأنهم كانوا يكرهون خلفة البنات فنسبوهن إلى الله ونسبوا لأنفسهم البنين ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا ﴾ أم أنك يا محمد سألتهم مالاً على إيمانهم ﴿ فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ فأثقلت عليهم بغرامة الأجر ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أم أنهم يعرفون الغيب ويسجلونه لديهم ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ﴾ أم أن الأمر مجرد كيد لك وللمؤمنين ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ فإن المكر السيئ لا يحيق إلاّ بأهله ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ فما هو دليلهم على ذلك ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

***

﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩) ﴾

إن يروا فى السماء قطعًا قريبة منهم يقولون سحابًا بعضه على بعض يحمل لنا رزقًا، ألا يخشون أن يأتيهم عذاب من السماء كما يأتيهم رزقهم؟ ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ فاتركهم يا محمد بعد أن بلغتهم رسالتك، حتى يوم يهلكون، يوم لا ينفعهم مكرهم ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ ولهم فى الدنيا عذاب من قبل عذاب الآخرة ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فلربك جنود لا يعلمها إلا هو، فاصبر يا محمد أنت ومن معك من المسلمين، ومن يأت بعدكم على أذى وكيد أعدائكم ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ فى حفظنا ورعايتنا، ويتبعك فى ذلك من يتبع سنتك ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ فسبح بحمد ربك ليل نهار، فى كل حين وكل حال.

***

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨) ﴾

يقسم رب العالمين ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ بالنجم إذا غرب وسقط، أو انتثر يوم الحساب ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ ما ضل محمد عن الحق والهدى، ولم يتبع غواية إنس ولا جن، بل هو مهتد ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ فكل ما يقوله عن ربه ما هو إلا وحيّ من الله ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾ أمين الوحى جبريل ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ ذو حصافة ﴿ فَاسْتَوَىٰ ﴾ قيل على صورته التى خلقه الله عليها، وقيل المقصود تمكن بما حباه الله من قوة وحصافة على القيام بما كلفه الله به ﴿ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴾ الجهة العليا من السماء المقابلة للناظر ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ قرب من الأرض ونزل حتى كان مع محمد (ﷺ) ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ قريبًا قدر المسافة بين منتصف قوسين مضمومين، أى أقرب ما يكون ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ أوحى جبريل إلى رسول الله ما أوحى الله إليه ﴿ مَا كَذَبَ

(*) إلا الآية ٣٢ فمدنية.

﴿الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ ما كذب فؤاد محمد فيما رآه ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ أفتجادلون محمداً وتكذبونه فيما يراه ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ ولقد رأى محمد جبريل على صورته مرة أخرى ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾ قال المفسرون إن السدرة هى شجرة النبق، ولكن ليس هناك توضيح قرآنى عن معنى ﴿سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾ ولا نريد الخوض فى أمور الغيب ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ وكل ذلك من أمور الغيب ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ يغطى السدرة ما يغطيها ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ ما أخطأ بصر محمد عما سُمِحَ له برؤيته وما طغى، أى ما تجاوز حد ما سُمح له به ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ قال بعض المفسرين كان ذلك فى المعراج، وما رواه الرسول (ﷺ) عن أحوال الناس فى الآخرة، وتوقف البعض عن الخوض فى هذا الغيب. وقال محمد الغزالى: [للعلم الإنسانى مصادر معروفة، أولها العقل ثم الحواس الخمس. وهناك مصدر ثالث اختص به بعض الناس وهو الوحى الصادق. أشار إليه يعقوب عندما قال لأبنائه: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦].

ومن تلقى شيئًا من العليم بكل شىء، فقد اكتسب علمًا لا ريب فيه! والله لا يهب من علمه لكل إنسان. فالناس معادن، ولا يحمل العلم إلا عباد مصطفون، عباد لهم طباع سماوية تأنف من الإسفاف والافتراد، تأفل النجوم وهم لا يأفلون، وتغرب وهم لا يغربون!

ومحمد من هؤلاء أو قل: هو إمام هؤلاء!

وسورة النجم تصف كيف تلقى الوحى فتقول ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ﴾.

لقد سبق أن نودى موسى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة، ليكون راعيًا للناس بعدما رعى الغنم سنين عدداً. وها هو ذا كبير الأنبياء الذى اعتزل الناس فى غار حراء يجيئه الملك فى صورته المهيبة ليبدأ مشوار الدعوة الكبرى.

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾؟

والوحى المحمدى أساسه الحقيقة التى غابت عن كثيرين وحرمت من معرفتها أجيال.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾].

* * *

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣) أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ (٢٥) وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦) ﴾

أفرأيتم الأصنام التى تعبدونها : اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى؟ ـ وقد كانوا يقولون إن الملائكة والأصنام بنات الله، وجعلوا الأصنام شركاء لله، وهم كانوا يستضعفون ويستقلون البنات، ويجزعون من الإنفاق عليهن، ويخشون عارهن ـ فهل جعلتم أولئك البنات شركاء الله وبناته؟ ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ يقول تعالى متهكمًا : إذًا هذه قسمة جائرة ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ ليس لديكم حجة أو برهان، إنما أنتم وآباؤكم تتبعون ﴿ الظَّنَّ ﴾ الخاطىء السىء ﴿ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ ﴾ الذى لا يصدر عن تفكر وتدبر، بل عن هوى النفس وأمنياتها التى تريد متع الدنيا الزائفة الزائلة ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ على لسان محمد لمن أراد أن يتدبر ويتذكر، أو أراد شكورًا ﴿ أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾ فليس الثواب على التمنى، ولكن على الإيمان والعمل الصالح ﴿ فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ ﴾ فهو الخالق، وهو القيوم، وهو المحيى والمميت، مالك الملك ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا ﴾ كيف تعتقدون أن الأصنام تشفع ـ لأنها فى ظنكم الخاطىء السىء بنات الله ـ إذا كانت الملائكة الكرام الحقيقية لا تنفع شفاعتها؟! ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾ إلاّ بإذن الله .

* * *

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَىٰ (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ (٣٠) ﴾

يعتبر كفار قريش الرافضون الآخرة الملائكة إناثًا ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ ﴾ الخاطىء السىء الذى لا يفيد من الحق شيئًا ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا ﴾ فلا تلتفت لمن تولى عن ذكر الله ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ التى هى أكبر همه ومبلغ علمه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ فاختار طريق الضلال ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾ .

* * *

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ (٣٢) ﴾

يحاسب مالك السماوات والأرض الناس بما عملوا، بموازينه الحق، إن عملوا سوءًا جزاهم سوءًا، ويغفر ويعفو عن كثير، وإن عملوا حسنًا أثابهم بالحسنى، فالحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ويزيد ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ ﴾ كالقتل والفتنة وقول الزور والزنا والسرقة ﴿ إِلاَّ اللَّمَمَ ﴾ صغائر الذنوب، فإن الله ﴿ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ إذا ما تدارك العبد واستغفر وندم وتاب قبل أن يغرغر ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ وبضعفكم منذ أن ﴿ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ ﴾ منذ أن خلق أباكم آدم من طين، وخلقكم في بطون أمهاتكم ﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ﴾ فلا تمدحوا أنفسكم وتنسبوا لها التقوى، فالله ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾.

***

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ (٣٣) وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ (٣٤) أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧) أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ (٤١) ﴾

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴾ أدار ظهره للحق ﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ ﴾ أعطى من ماله القليل ثم قطع عطيته؛ لأن نفسه الشحيحة لا تطيق الإحسان. قيل إن هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة الذي مال للإسلام، فرده أحد شيوخ قريش قائلاً أنا أتحمل عنك عذاب الآخرة إن أعطيتني كذا وكذا، فدفع الوليد قليلاً ثم توقف ﴿ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴾ هل يعلم ماذا سيحدث غدًا؟ ـ فإن الله يقول ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران، ١٤٠] فاليوم يحتاج أخوك لك وغدًا تحتاج أنت إليه ـ ألا يعمل هذا المتولي عن الحق لآخرته؟ ألم يعرف ما جاء في توراة موسى (ﷺ) وصحف إبراهيم (ﷺ) الذي وفّى حين أمره الله بالتضحية بابنه الوحيد إسماعيل (ﷺ) ﴿ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ لا تؤاخذ نفس بذنب غيرها ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴾ فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره، وفي الحديث: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما

هاجر إليه» متفق عليه ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ يوم الحساب ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ ثم توفى كل نفس ما عملت بالعدل الإلهى.

❊ ❊ ❊

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ (٤٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ (٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٥)﴾

نهاية الإنسان هى عودته إلى ربه يوم الحساب ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ فهو خلق أسباب السعادة والضحك، وأسباب الحزن والبكاء ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ فهو المحيى المميت ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ فى الإنسان والحيوان وفيما لا نعلم ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ إذا تدفقت فى الرحم ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ يوم الحساب ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ﴾ أعطى ووهب ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ قيل معناها أفقر، وقيل أعطى قليلاً وأرضى به، وقيل أعطى من يمسك ولا يعطى ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾ وهو من ألمع ما يرى من نجوم السماء، وقد اختصها الله بالذكر لأن بعض العرب كانوا يعبدونها، وكذلك غيرهم ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ وهم قوم نبى الله هود (ﷺ) ﴿وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ﴾ قوم صالح (ﷺ) ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ بالطوفان؛ لأنهم كانوا ﴿أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ من قوم هود وقوم صالح، أو أن الأقوام الثلاثة كانوا أظلم وأطغى من الأقوام الآخرين ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ التى قلبت الحق، أى قرى قوم لوط ﴿أَهْوَىٰ﴾ أسقطها فى هلاك الدنيا وعذاب الآخرة، وقال معظم المفسرين رفعها فى السماء وأهوى بها إلى الأرض، فانقلبت رأسًا على عقب ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾ غطاها من عذاب الدنيا والآخرة ما غطّاها ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ﴾ فبأى نعمة من نعم ربك ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ تتشكك وتُكَذِّب أيها الإنسان!.

❊ ❊ ❊

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ (٥٦) أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنتُمْ سَامِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢)﴾

﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَىٰ ﴾ قال أكثر المفسرين هذا محمد (ﷺ) والقرآن نذير لكم مثل النذر الأولى التى جاءت للأقوام السابقين، ويحتمل السياق أن ما قصته عليكم الآيات هو نذير للأقوام السابقة، فانظروا ماذا حل بهم، واتعظوا واعتبروا حتى لا يصيبكم ما أصابهم ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ ﴾ اقتربت الساعة ودنت ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ ليس غير الله يملك أن يكشف عن وقت وقوعها، وقيل ليس غير الله قادرًا على أن يكشف هولها عن المؤمنين ﴿ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ أتتعجبون من هذا الإنذار الجلل، وتضحكون بدلاً من أن تبكوا خوفًا على مآلكم ﴿ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴾ وأنتم لاهون بمتع الدنيا الزائفة الزائلة ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ فتداركوا أنفسكم وسارعوا بالسجود لله، رمزًا للتسليم له وعبادته.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧) مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨) ﴾

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ قال المراغى : [﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ أى دنت الساعة التى تقوم فيها القيامة، وقرب انتهاء الدنيا، وهذا كقوله : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : ١]، وقوله ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ١] ﴿ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ أى وسينشق القمر وينفصل بعضه من بعض حين يختل نظام هذا العالم وتبدل الأرض غير الأرض، ونحو هذا قوله : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ [الانشقاق : ١]، وقوله : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾ [التكوير : ١-٢]، وكثير غيرهما من الآيات الدالة على الأحداث الكبرى التى تكون حين خراب هذا العالم وقرب قيام الساعة. ويرى جمع من المفسرين أن هذا حَدَث قد حصل، وأن القمر صار فرقتين على عهد رسول اللَّه (ﷺ) قبل الهجرة بنحو خمس سنين، و(لكن) الذى يدل على أن هذا إخبار عن حدَث مستقبل لا عن انشقاق ماض ـ أمور :

(*) إلا الآيات ٤٤، ٤٥، ٤٦ فمدنية.

(١) إن الإخبار بالانشقاق أتى إثر الكلام على قرب مجيء الساعة، والظاهر تجانس الخبرين، وأنهما خبران عن مستقبل لا عن ماض.

(٢) إن انشقاق القمر من الأحداث الكونية الهامة التى لو حصلت لرآها من الناس من لا يحصى كثرة من العرب وغيرهم، ولبلغ حدّا لا يمكن أحدًا أن ينكره، وصار من المحسوسات التى لا تدفع، ولصار من المعجزات التى لا يسع مسلمًا ولا غيره إنكارها.

(٣) ما ادعى من المسلمين - إلا من شذ - أن هذه معجزة بلغت حد التواتر، ولو كان قد حصل ذلك ما كان رواته آحادًا، بل كانوا لا يعدّون كثرة.

وبعد أن ذكر قرب مجيء الساعة، وكان ذلك مما يستدعى انتباههم من غفلتهم والتفكير فى مصيرهم، والنظر فيما جاءهم به الرسول من الأدلة المثبتة لنبوته، والمؤيدة لصدقه، لكنهم مع كل هذا ما التفتوا إلى الداعى لهم إلى الرشاد، والهادى لهم إلى سواء السبيل، بل أعرضوا وتولوا مستكبرين كما قال: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أى وإن ير المشركون علامة تدلهم على حقيقة نبوتك، وترشدهم إلى صدق ما جئت به من عند ربك، يعرضوا عنها ويولوا مكذبين بها، منكرين أن يكون ذلك حقّا، ويقولوا تكذيبًا منهم بها: هذا سحر سحرنا به محمد، وهو يفعل ذلك على مرّ الأيام. وفى هذا إيماء إلى ترادف الآيات، وتتابع المعجزات]، وقال مخلوف: [﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ قربت القيامة حتى انشق القمر بعد النفخة الثانية] ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ كذبوا ما جاءهم من بينات ليتبعوا أهواءهم وما استقر عليه آباؤهم برغم ما جاءهم من أنباء عن هلاك الأقوام السابقة، وما فيه من ازدجار لهم يمنعهم وينهرهم عن اتباع آبائهم فى تكذيبهم البينات ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ رغم ما جاءهم من حكمة بالغة الحجة، ولكن لم ﴿تُغْنِ النُّذُرُ﴾ فلا تنفع النذر من انصرف عنها ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أعرض عنهم يامحمد حتى ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ يوم الحساب، يوم يجمع الداع البشر لهول الحساب ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ ذليلة مكسورة أبصارهم ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ يخرجون من القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ من كثرة عددهم ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ مسرعين ناظرين فى استسلام ﴿إِلَى الدَّاعِ﴾ الذى يدعوهم إلى موقف الحساب ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ صعب عسير.

***

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ

قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧)

قبل تكذيب قومك لك، كذب نوحًا قومه وقالوا عنه مجنون وزجروه، أى نهروه حتى يتوقف عن دعوتهم ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ نادى نوح ربه: إنى هُزمت يارب العالمين فانصرنى على القوم الظالمين، فاستجاب له نعم المجيب، فأمطرت السماء سيولاً وفجرت الأرض عيونًا، فالتقى ماء المطر وماء العيون فى فيضان قدرة الله، وحمل الله رسوله ومن آمن به على سفينته من ألواح خشبية ﴿وَدُسُرٍ﴾ مسامير وليف يشد ألواحها تجرى على الماء بعنايتنا ﴿جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ جزاءً لنوح الذى كفر به قومه ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ فهل من متعظ يتذكر فينتفع بتذكره بأن يؤمن ويعمل صالحًا ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ فاعتبروا كيف كان عقابى لمن كذَّب إنذارى ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ ولقد حفظنا القرآن، ويسرنا قراءته لكل من يريد، ولا يستعصى فهمه على من أراد أن ينتفع به، فهل من ﴿مُّدَّكِرٍ﴾ فهل من متذكر متعظ؟.

***

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٢٢)﴾

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ رسولهم هودًا ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ فاعتبروا كيف كان عقابى لمن كذَّب إنذارى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ شديدة البرودة عالية الصوت ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ شؤم ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ حتى قضى عليهم ﴿تَنزِعُ النَّاسَ﴾ تقلع الناس من أماكنهم وتقذف بهم ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ كأنهم جذوع أصول نخل منقعر، أى منقلع من الأرض ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

***

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٣٢)﴾

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴾ كذبت ثمود بإنذارات صالح، أو بإنذار صالح وإنذار من قبله من الرسل، فمن كذَّب إنذار رسول كأنما كذَّب مبدأ إنذار الرسل ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ هل يعقل أن نتبع إنسانًا مثلنا ونترك آلهة الآباء؟! لو فعلنا ذلك فإننا فى ضلال وجنون ﴿ أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا ﴾ هل نزل عليه الوحى واختاره من بيننا؟ ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ بل هو كذاب شديد الكبر والبطر، ثم قال الله لرسوله: سيعلمون غدًا من هو الكذاب الأشر، سأرسل لهم ناقة فتنة لهم، تشرب يومًا من ماء بئرهم، ويشربون هم يومًا معلومًا آخر، ثم أمره بأن يراقب فعل قومه، ويصطبر عليهم ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ فنادوا أحد مترفيهم، فأمسك بالسيف وعقر الناقة ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ فاعتبروا كيف كان عقابى لهم بعد إنذارى إياهم ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً ﴾ الإهلاك، نزلت عليهم كالصاعقة، فأخذتهم فزلزلتهم وأرجفتهم ﴿ فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ كالحشيش اليابس الذى يتخذه صانع الحظيرة ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾.

***

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ (٣٤) نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٤٠) ﴾

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴾ كذبوا إنذارات الرسل، أو بتكذيبهم إنذار لوط، فكأنهم كذبوا إنذارات الرسل، فأرسل الله عليهم ريحًا ترميهم بالحصباء أى الحصا، أو الحجارة الصغيرة ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ ﴾ أسرته ممن آمن معه ﴿ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴾ حيث أخرجناهم من القرية التى كانت تعمل الخبائث قبيل الصبح ﴿ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴾ فنجيناه وأهلكنا قومه ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا ﴾ وقد أنذرهم لوط من أخذنا الشديد ﴿ فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴾ فتشككوا بالإنذارات وكذبوها، بل ﴿ لَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ ﴾ لقد أرادوا أن يمكنهم لوط من ضيوفه ﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ فأعميناهم ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ فذوقوا عذاب الله وما حذركم منه ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً ﴾ أتاهم فى الصباح الباكر ﴿ عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ مستمر حتى هلكوا ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ عن استحقاق تام ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾.

***

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَائِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ (٤٦) ﴾

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴾ على يد موسى وهارون (صلى الله عليهما وسلم)، فكذبوا كل آياتنا، فاستدرجهم الله بتكبرهم وجحودهم، ليأخذهم أخذ عزيز مقتدر بإغراقهم فى الماء ﴿ أَكُفَّارُكُمْ ﴾ يا أهل مكة وبلاد العرب، ومن يبلغه القرآن ﴿ خَيْرٌ مِّنْ أُولَائِكُمْ ﴾ الأمم السابقة التى عصت ربها وكذبت رسله ﴿ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ أم لكم براءة وعهد من الله فى الكتب السماوية ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ أم يقول أولئك الكفار نحن أقوياء ومجتمعون والنصر حتمًا لنا ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ سيغلب جميع الكفار ويفرون ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ﴾ يومهم النهائى ﴿ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ عليهم.

***

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥) ﴾

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ فى ضلال الدنيا وفى نيران مستعرة فى الآخرة ﴿ يُسْحَبُونَ ﴾ فيها على وجوههم، ويقال لهم ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ ذوقوا نار جهنّم، وسقر علم على جهنم، من سقرته الشمس، أى لوحته وأذابته ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ بتقدير ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ وما قضاؤنا إلاّ كلمة ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ يتم ذلك فى لمح البصر، بل أسرع، وهذا لتقريب أمر طلاقة القدرة الإلهية للأذهان ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ ﴾ أشباهكم فى الكفر من الأمم السابقة ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ فهل من متذكر متعظ؟ ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ كل مافعلوه مسجل فى كتاب، فيه ﴿ كُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ مسجل عليهم أو لهم. أما المتقون الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولم يعصوا ربهم، ففى ﴿ جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ فى مقام كريم، ومنزلة رفيعة ﴿ عِندَ مَلِيكٍ ﴾ ملك الملوك ﴿ مُّقْتَدِرٍ ﴾ قادر على كل شىء لا يعجزه شىء، فهو خالق كل شىء.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ﴾

﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ اسم من أسماء الله الحسنى، ذكر فى القرآن ٥٦ مرة، بخلاف ذكره فى البسملة فى بداية كل سورة عدا سورة التوبة، ومعناه ذو الرحمة الواسعة، والكلمة على وزن فعلان تفيد المبالغة فى الرحمة، وهو واهب الرحمة لمن يريد من خلقه ومانعها عمن يريد، وسعت رحمته كل شىء، وارجع لشرحها فى سورة الفاتحة صفحة ١٤ من المجلد الأول ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ من نعمة الرحمن على البشر إنزاله الكتب وإرساله الرسل، فأنزل القرآن وعلمه للعلماء ليعلموه للناس، وفى الحديث «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» رواه البخارى، وقدمت السورة ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ على ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴾ فكأن القرآن بما جمع من كتب سماوية هى فيض الرحمن ونوره على ذلك الإنسان المخلوق من طين، ثم من نطفة، يلتقى بنور الله فى فطرة ذلك الطين والنطفة، فيحلق عاليًا، مؤهلاً لأن يصبح

(*) وقيل مكية.

خليفة على الأرض، يعبد الله بأن يقيم الحق ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴾ من العدم، ثم من طين، ثم من نطفة ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ بيان ما فى نفسه، وفهم بيان غيره ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ حسبان مصدر كالغفران، أو جمع حساب مثل شهاب وشهبان، فحركتهما بحساب، وما يمدان به الأرض من طاقة حرارية وضوئية وما إلى ذلك بحساب، وسخرهما الله بحساب ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ والنجم هو النبات الذى ينجم، أى يطلع من الأرض ولا ساق له، وهو نجم السماء أيضًا ﴿ وَالشَّجَرُ ﴾ الذى له ساق ﴿ يَسْجُدَانِ ﴾ عبادة وطاعة لله باتباع قوانينه ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ﴾ بغير عمد ﴿ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ المقصود بالميزان العدل، فيكون المعنى شرع العدل ونهى عن الظلم ﴿ أَلاَّ تَطْغَوْا فِى الْمِيزَانِ ﴾ لا تظلموا وتتجاوزوا العدل ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ واعدلوا ولا تظلموا ﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا ﴾ بسطها ويسرها ﴿ لِلأَنَامِ ﴾ للخلق ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ ﴾ ذات الأوعية التى فيها الثمر ﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ ﴾ ذو القشر أو الورق اليابس كالتين ﴿ وَالرَّيْحَانُ ﴾ كل نبات طيب الرائحة ﴿ فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأى نعمة من نعم الله تجحدان أيها الثقلان، أى الإنس والجن.

***

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥) فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِى الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٢٤) فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) ﴾

خلق الله الإنسان من طين يابس يسمع له صوت ﴿ كَالْفَخَّارِ ﴾ كالطين الذى يتحول لفخار ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ من لهب صاف ﴿ فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأى نعمة من نعم ربكم تجحدان وتنكران ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ أى مشرقى الصيف والشتاء ومغربى الصيف والشتاء ﴿ فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأى نعمة من نعم ربكم تجحدان ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ قال زغلول النجار: [إطلاق لفظة البحرين هنا دون تقييد يدل على أنهما البحران المالحان، وليس النهر والبحر كما ذهب إليه غالبية المفسرين ـ قدامى ومعاصرين ـ ويؤكد ذلك ما جاء فى الآية ٢٢ من السورة نفسها بقول الحق (عز من قائل): ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ واللؤلؤ عبارة عن كريات صلبة ناعمة من كربونات

الكالسيوم، لها بريق لونى مبهج، تنمو بداخل أصداف طائفة خاصة من قبيلة الرخويات تعرف باسم «مزدوجات المصراع»، وهى حيوانات مائية تعيش فى كلٍّ من الماء الملح والماء العذب، ويستخدم اللؤلؤ كأحد الجواهر النفيسة، ولكن المرجان هو حيوان بحرى لا يحيا إلا فى الماء المِلْح (وهو اللؤلؤء الصغير)، وعلى ذلك فإن سياق الآيات فى سورة الرحمن يؤكد أن البحرين كَلاهما مالح، كما أكده إطلاق لفظة البحرين[1] ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فبأى

(١) والتباين فى كل من درجات الحرارة ونسبة تركيز الأملاح فى ماء البحار والمحيطات يؤدى إلى تباين فى كثافتها، مما يعين على تحديد تلك الكتل المائية المتباينة، على الرغم من محاولة الأمواج والتيارات البحرية خلطها مع بعضها البعض. وتتحرك كتل الماء السطحية بين مساحات كبيرة من خطوط العرض، فتتغير صفاتها الطبيعية والكيميائية بتغير الظروف البيئية التى تنتقل إليها من مثل درجات الحرارة، ومعدلات التبخير، وسقوط الأمطار، وغيرها، وعندما تتغير كثافة الكتلة المائية السطحية فإنها تغوص فى وسط ماء أقل كثافة حاملة معها بعض صفات ماء المنطقة السطحية التى كانت فيها إلى أعماق المحيط، إن لم تحمل تلك الصفات كلها، فتؤدى إلى تغيير كبير فى صفات الماء بتلك الأعماق، كما تعين على تحديد المصادر التى جاءت منها مهما تباعدت مسافات تلك المصادر إلى آلاف الكيلومترات، ومع اختلاط الماء من مصادر مختلفة تتغير صفات الكتل المائية فى المحيط الواحد، وفى البحر الواحد باستمرار، وبين البحار والمحيطات المختلفة بطريقة مستمرة.

وعلى الرغم من ذلك تبقى كتل متمايزة من الماء فى تلك البحار والمحيطات ما بقيت، وتسمى كتل الماء المميزة على أسطح تلك المساحات المائية العملاقة فى البحار والمحيطات باسم «الموقع الجغرافى» الذى توجد فيه، فتوجد كتل الماء المتوسط بين التيارات المائية الرئيسية فى محيطات الأرض، وتوجد كتل الماء حول القطبين، وكتل غيرها بين هاتين المجموعتين من كتل الماء المتميزة، وتعرف باسم «كتل الماء شبه القطبى».

(أ) كتل الماء السطحى فى البحار والمحيطات

ينقسم الماء السطحى فى بحار الأرض ومحيطاتها على أساس من التباين فى درجات الحرارة ونسبة الملوحة إلى الكتل التالية:

(١) كتلة الماء السطحى المتوسط: وتتراوح درجة حرارتها بين ٦ ، ١٩ مئوية، ونسبة ملوحتها بين ٣,٤٪ و ٣,٦٥٪، وتمتد فى بحار المناطق شبه الاستوائية ومحيطاتها، وبين خطوط العرض ٣٠، ٣٥ شمالاً وجنوبًا، وهذه الكتلة المائية الكبيرة تنقسم إلى كتل أصغر لها الكثافة نفسها تقريبًا، ولكنها تختلف فى بقية صفاتها الطبيعية باختلاف مواقعها الجغرافية، فعلى سبيل المثال فإن الماء السطحى فى الجزء الشمالى من المحيط الأطلسى يعتبر أكثر أجزاء المحيطات ملوحة، بينما يعتبر الماء السطحى فى شمال المحيط الهادى أقلها ملوحة، ويستمر تواجد كتل الماء المتوسط رأسيًا فى عمق البحر أو المحيط حتى مستوى ثبات المنحدر الحرارى.

(٢) كتل الماء السطحى فى خطوط العرض العليا: وهذه تتميز بدرجات حرارة منخفضة، ونسب ملوحة أقل مما فى كتل الماء المتوسط؛ وذلك لوجودها فى مناطق باردة وغزيرة الأمطار، وتمتد بصفة عامة فى المناطق المناخية المعتدلة شمالاً وجنوبًا.

(٣) كتل الماء السطحى فى المناطق حول القطبية: أضخمها المنطقة حول القطب الجنوبى، ويتحرك فيها الماء من الغرب إلى الشرق فى اتجاه دوران الأرض، ويمتد إلى أعماق تصل إلى ٣٥٠٠ متر، فى=

= درجات حرارة تكاد تكون منتظمة بين درجتين مئويتين والصفر المئوى، ونسبة أملاح تتراوح بين ٤٦ , ٣٪ و٤٧ , ٣٪.

(ب) كتل الماء متوسط العمق فى البحار والمحيطات

يمتد هذا الماء إلى عمق يصل إلى ١٥٠٠ متر تحت مستوى سطح البحر، وهو يتباين فى درجات حرارته، ونسب الملوحة فيه، وذلك لتحركه من مصادر مختلفة، وعلى ذلك يمكن تقسيمه إلى العديد من الكتل بناء على صفاته الطبيعية، ومصادره التى جاء منها. ويبلغ هذا الماء المتوسط العمق أقصى انتشار له فى المنطقة المعتدلة الجنوبية، وهى منطقة شاسعة الاتساع عندما يبدأ الماء فى الهبوط من السطح إلى أعماق البحر؛ لازدياد كثافته بزيادة برودته، أو لزيادة نسبة الأملاح المذابة فيه، وبهبوط هذا الماء يختلط بنسب مختلفة مع كتل مائية ذات صفات متباينة ليكوّن ما يسمى باسم «ماء القطب الجنوبى المتوسط العمق» والذى ينتشر فى كل أحواض المحيطات، ويتدفق هذا الماء البارد فى اتجاه الشمال حتى يصل إلى خط عرض ٢٠ شمالاً فى المحيط الأطلسى، ويتحرك جنوبًا حتى خط عرض ١٠ جنوب خط الاستواء فى كل من المحيطين الهندى والهادى. ويمتد ماء القطب الشمالى المتوسط العمق إلى شمال كلّ من المحيطين الأطلسى والهادى، ويتركز فى أجزائهما الغربية، وهذا الماء تزداد ملوحته نسبيًا فى شمال غرب المحيط الأطلسى؛ وذلك بسبب تركيز الأملاح الناتج عن تجمد الماء فى القطب الشمالى، وتحرك الركازة الملحية إلى تلك المنطقة التى تشتد معدلات البخر فيها. كذلك درجة حرارة حوالى ١٣° م، ونسبة ملوحة تصل إلى ٨١ , ٣٪ لينزل تحت الماء السطحى للمحيط وتحت كتل الماء المتوسط فيه، ويمكن تتبعه إلى مسافات بعيدة فوق قاع المحيط الأطلسى، رغم تغير صفاته الطبيعية بالاختلاط مع غيره من كتل الماء، كذلك يندفع ماء البحر الأحمر إلى بحر العرب عبر باب المندب ليختلط بكتل الماء فيه، ويندفع ماء الخليج العربى إلى المحيط الهندى عبر مضيق هرمز.

(جـ) كتل الماء العميق فى البحار والمحيطات

إن أوضح نموذج لكتل الماء العميق فى البحار والمحيطات يقع فى الجزء الشمالى الغربى من المحيط الأطلسى، وينتج هذا الماء من اختلاط الماء شديد الملوحة المندفع بواسطة تيار الخليج الذى يضرب شواطئ فلوريدا والماء السطحى القادم من المنطقة شبه المتجمدة الشمالية، وفى فصل الشتاء يبرد هذا الخليط من الماء فيهبط إلى قاع البحر حتى يصل إلى ما دون كتل الماء المتوسطة العمق، وعندما يتحرك هذا الخليط من الماء جنوبًا فإنه يرتفع فوق ماء القطب الجنوبى العميق لقلة كثافته عن كثافة الماء القطبى، وعلى ذلك فإن كتلة ماء شمال الأطلسى العميقة تغطى قاع ذلك المحيط إلى خط عرض ٣٠ شمالاً، ولكنها تتطابق بين كتل الماء العميق والمتوسط العمق كلما اتجهنا إلى الجنوب من هذا الخط من خطوط العرض، وتبقى كل كتلة منها محتفظة بصفاتها الطبيعية والكيميائية حوالى ٣ درجات مئوية، ويصل متوسط نسبة الأملاح فيها إلى ٩ , ٣٤٪، ولا توجد كتل عميقة من الماء فى كل من المحيطين الهندى والهادى باستثناء بعض الجيوب الصغيرة.

(د) كتل الماءشديد العمق فى البحار والمحيطات

يحوى المحيط القطبى الجنوبى فوق قاعه كتلة من الماء تعتبر أعلى ماء الأرض كثافة، ويتكون هذا الماء حول القارة القطبية الجنوبية فى فصل الشتاء، ثم يتحرك شمالاً إلى قيعان المحيطات الرئيسية الثلاثة: الهادى والأطلسى والهندى حتى يصل إلى خط العرض ٣٠ شمالاً. وكتل ماء قاع القطب الجنوبى تتكون أساسًا من تجمد الماء بكميات كبيرة فوق الرصيف القارى تاركًا وراءه كمية هائلة من الركازة الملحية، التى تندفع عبر منحدرات الجرف القارى لتختلط مع قدر مساو تقريبًا من كتل الماء السطحى حول القطبين، فينشأ هذا الماء الذى يتميز بدرجة برودة شديدة (-٤ , ٠ درجة مئوية) ونسبة ملوحة عالية نسبيًا فى حدود ٤٧ , ٣٪). وعلى ذلك، فقد ثبت أن الماء فى محيطات العالم يرتب أفقيًا ورأسيًا فى كتل متمايزة =

نعمة من نعم ربكم تجحدان ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ حلية لكم ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وهو مالك السفن التي تنشئونها بما حباكم به من علم، وما سنه في الكون من قوانين، تجرى في البحر ﴿ كَالأَعْلامِ ﴾ كالجبال الضخمة الطويلة، ولم يكن وقت التنزيل هناك سفن ضخمة كالجبال ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

***

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠) سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) ﴾

= عن بعضها البعض، تبدأ عند مستوى سطح البحر في المناطق ذات خطوط العرض العليا، وتمتد إلى أعماق البحار والمحيطات حتى تصل إلى قاع المحيط في المناطق الاستوائية. والترتيب الأفقي لكتل الماء المختلفة في البحار والمحيطات حسب مناطقها المناخية يعكس الترتيب الرأسي في النقطة الواحدة حسب العمق.

وهذه الكتل المائية المتجاورة مفصولة عن بعضها البعض بواسطة الصفات الطبيعية والكيميائية الخاصة للماء، وتتباين صفات تلك الكتل ذاتها، على الرغم من تحركها عبر بعضها البعض باستمرار أفقيًا ورأسيًا (أي مرجها)، وذلك بفضل تكون حواجز ذات طبيعة وسطية باستمرار بين الكتل المائية المتفاوتة في صفاتها الطبيعية والكيميائية.

ونظرًا لأن دورة الماء في المحيط دورة مستمرة، فإن الماء يتحرك أفقيًا ورأسيًا باستمرار فيختلط، ولا يمتزج امتزاجًا كاملاً أبدًا، فالماء على السطح تدفعه الرياح والتيارات البحرية والأمواج المختلفة في محاولة لخلط تلك الكتل المائية المتجاورة، ولكن ذلك لا يتم بالكامل لضخامة كمياتها، وكذلك فإن هذا الماء السطحي يتعرض للتبخير فتزداد ملوحته، وبالتالي تزداد كثافته، أو للتبريد فتزداد كثافته؛ مما يؤدي إلى نزوله إلى أعماق البحر، وهناك قد يتعرض لشيء من الحرارة عبر النشاطات البركانية فوق قيعان بعض البحار والمحيطات، أو لشيء من إنقاص نسبة الملوحة بترسيب جزء من الملح المذاب، أو تقليل نسبته بالاختلاط بتيار من الماء العذب، فتقل كثافة الماء في الأعماق، ويرتفع إلى أعلى لمعاودة الكَرّة مرات ومرات ومرات إلى أن يرث الله (تعالى) الأرض ومن عليها.

وقد ثبت بدراسة النظائر المشعة أن اختلاط ماء أعماق البحار والمحيطات يحتاج بين الألف والألف وستمائة سنة لكي يتم، وذلك في حوض المحيط الهادي، وإلى نصف هذا الزمن في كل من المحيطين الهندي والأطلسي؛ ولذلك فهو يمثل دائمًا أقدم الماء في المحيط على الإطلاق، بينما يمثل الماء السطحي أحدث الماء عمرًا؛ لأنه لا يكاد يبقى في مكانه لأكثر من ١٠ إلى ٢٠ سنة، والماء يتحرك من المحيطين المتجمد الجنوبي في اتجاه الشمال بمعدل نصف مليمتر تقريبًا في كل ثانية. من ذلك يتضح أنه على الرغم من عوامل الخلط الأفقية والرأسية المستمرة في البحار والمحيطات بفعل كلّ من الأمواج والتيارات البحرية، وبفعل تغير درجات الحرارة، ومتوسط الكثافة، إلا أن العديد من الكتل المائية تبقى محتفظة بصفاتها الطبيعية والكيميائية الخاصة؛ لتوفر البيئات اللازمة لكل مجموعات الحياة في البحار والمحيطات. د. زغلول النجار ـ *«تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم»* الجزء الرابع صفحات ٥٢ - ٥٧ ـ مكتبة الشروق الدولية.

كل ما على الأرض هالك، ويبقى الله ذو الجلال والإكرام ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يسأله خلقه فى السموات والأرض خوفًا وطمعًا ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ الزمن من مخلوقات الله، ويجرى الزمن بتغيير شئون الله فى خلقه وفى مخلوقاته، ولا يجرى عليه بتغيير فى ذاته ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ثم تحذر الآية الثقلين ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ ﴾ قال المراغى: [قال الزجاج: الفراغ فى اللغة على ضربين، أحدهما الفراغ من الشغل، والآخر القصد للشيء والإقبال عليه، كما هنا]، أو بتعبير مستعار من أحوال الناس وأقوالهم: سنتفرغ يوم القيامة لحسابكم حسابًا عادلاً ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ثم تكشف الآية عن غيب لم يتحقق إلا بعد نزول القرآن بأكثر من اثنى عشر قرنًا ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا ﴾ إن استطعتم أن تخرجوا من أقطار السماوات والأرض فاخرجوا[1]، ولا يتم ذلك ﴿ لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾ من الله ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وكأنما الآية تتنبأ بأن ينفذ الإنسان بقدر محدود من أقطار السماوات والأرض، والله أعلم.

* * *

(١) قال زغلول النجار فى:

أولاً: بالنسبة للنفاذ من أقطار الأرض

إذا كان المقصود من هذه الآيات الكريمة إشعار كلّ من الجن والإنس بعجزهما عن النفاذ من أقطار كل من الأرض على حدة، والسماوات على حدة، فإن المعارف الحديثة تؤكد ذلك؛ لأن أقطار الأرض تتراوح بين ١٢٧٥٦ كيلومترًا بالنسبة إلى متوسط قطرها الاستوائى، و١٢٧١٣ كيلومترًا بالنسبة إلى متوسط قطرها القطبى؛ وذلك لأن الأرض ليست تامة الاستدارة لانبعاجها قليلاً عند خط الاستواء، وتفلطحها قليلاً عند القطبين.

ويستحيل على الإنسان اختراق الأرض من أقطارها لارتفاع كلّ من الضغط والحرارة باستمرار في اتجاه المركز مما لا تطيقه القدرة البشرية، ولا التقنيات المتقدمة التى حققها إنسان هذا العصر، فعلى الرغم من التطور المذهل في تقنيات حفر الآبار العميقة التى طورها الإنسان بحثًا عن النفط والغاز الطبيعى، فإن هذه الأجهزة العملاقة لم تستطع حتى اليوم تجاوز عمق ١٤ كيلومترًا من الغلاف الصخرى للأرض، وهذا يمثل ٢,٠٪ تقريبًا من طول نصف قطر الأرض الاستوائى، وعند هذا العمق تعجز أدوات الحفر عن الاستمرار في عملها لتزايد الضغط، وللارتفاع الكبير في درجات الحرارة إلى درجة قد تؤدى إلى صهر تلك الأدوات، فمن الثابت علميًا أن درجة الحرارة تزداد باستمرار من سطح الأرض فى اتجاه مركزها حتى تصل إلى ما يقرب من درجة حرارة سطح الشمس المقدرة بستة آلاف درجة مئوية حسب بعض التقديرات، ومن هنا كان عجز الإنسان عن الوصول إلى تلك المناطق الفائقة الحرارة والضغط. ولو أن الجن عالم غيبى بالنسبة لنا، إلا أن ما ينطبق على الإنسن من عجز تام عن النفاذ من أقطار السماوات والأرض ينطبق عليهم.

والآيات الكريمة قد جاءت فى مقام التشبيه بأن كلاً من الجن والإنس لا يستطيع الهروب من قدر الله، أو الفرار من قضائه، بالهروب إلى خارج الكون عبر أقطار السماوات والأرض؛ حيث لا يدرى أحد ماذا بعد ذلك، إلا أن العلوم المكتسبة قد أثبتت بالفعل عجز الإنسان عجزًا كاملاً عن ذلك، والقرآن الكريم يؤكد لنا اعتراف الجن بعجزهم الكامل عن ذلك أيضًا، كما جاء فى قول الحق (تبارك وتعالى) على لسان الجن: =

= ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴾ [الجن : ١٢].

وذلك بعد أن قالوا :

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ [الجن : ٨].

ثانيًا: بالنسبة للنفاذ من أقطار السماوات:

تبلغ أبعاد الجزء المدرك من السماء الدنيا من الضخامة ما لا يمكن أن تطويها قدرات كل من الإنس والجن، مما يشعر كلاّ منهما بضآلته أمام أبعاد الكون، وبعجزه التام عن مجرد التفكير فى الهروب منه . . . أو النفاذ إلى المجهول من بعده . . . !!!.

فمجرتنا (سكة التبانة) يقدر قطرها الأكبر بمائة ألف سنة ضوئية (١٠٠,٠٠٠×٥×٩,٤ مليون مليون كيلومتر تقريبًا)، ويقدر قطرها الأصغر بعشرة آلاف سنة ضوئية (١٠,٠٠٠ × ٥ ,٩ مليون مليون كيلومتر تقريبًا)، ومعنى ذلك أن الإنسان لكي يتمكن من الخروج من مجرتنا عبر قطرها الأصغر يحتاج إلى وسيلة تحركه بسرعة الضوء (وهذا مستحيل) ليستخدمها في حركة مستمرة لمدة تصل إلى عشرة آلاف سنة من سنيننا، وبطاقة انفلات خالية لتخرجه من نطاق جاذبية الأجرام التي يمر بها من مكونات تلك المجرة، وهذه كلها من المستحيلات بالنسبة للإنسان الذى لا يتجاوز عمره فى المتوسط خمسين سنة.

ومجموعتنا الشمسية تقع من مجرتنا على بعد ثلاثين ألفًا من السنين الضوئية من مركزها، وعشرين ألفًا من السنين الضوئية من أقرب أطرافها، فإذا حاول الإنسان الخروج من أقرب الأقطار إلى الأرض فإنه يحتاج إلى عشرين ألف سنة وهو يتحرك بسرعة الضوء لكى يخرج من أقطار مجرتنا، وهل يطيق الإنسان ذلك؟! أو هل يمكن أن يحيا إنسان لمثل تلك المدد المتطاولة؟! وهل يستطيع الإنسان أن يتحرك بسرعة الضوء؟! كل هذه حواجز تحول دون إمكان ذلك بالنسبة للإنسان، وما ينطبق عليه ينطبق على عالم الجان . . . !!!.

ومجرتنا جزء من مجموعة من المجرات تعرف باسم «المجموعة المحلية» يقدر قطرها بنحو ثلاثة ملايين وربع المليون من السنين الضوئية ٣,٢٦١,٥٠٠ سنة ضوئية، وهذه بدورها تشكل جزءًا من حشد مجرى يقدر قطره بأكثر من ستة ملايين ونصف المليون من السنين الضوئية ٦,٥٢٣,٠٠٠ سنة ضوئية، وهذا الحشد المجرى يكون جزءًا من الحشد المجرى الأعظم، ويقدر قطره الأكبر بمائة مليون من السنين الضوئية، وسمكه بعشرة ملايين من السنين الضوئية. وتبدو الحشود المجرية العظمى على هيئة كروية تدرس في شرائح مقطعية تقدر أبعادها فى حدود ١٥٠ × ١٠٠ × ١٥ مليون سنة ضوئية، وأكبر تلك الشرائح - ويسميها الفلكيون مجازًا باسم ((الحائط العظيم)) - يزيد طولها على مائتين وخمسين مليونًا من السنين الضوئية.

وقد تم أخيرًا اكتشاف نحو مائة من الحشود المجرية العظمى تكون تجمعًا أعظم على هيئة قرص يبلغ قطره الأكبر بليونين من السنين الضوئية.

والجزء المدرك من الكون يمثل جزءًا يسيرًا من السماء الدنيا التى زينها ربنا (تبارك وتعالى) بالنجوم، فقال (عز من قائل):

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ [الملك : ٥].

هذا الجزء المدرك من السماء الدنيا يزيد قطره على العشرين بليون سنة ضوئية، وهى حقائق تجعل الإنسان بكل إنجازاته العلمية يتضاءل تضاؤلاً شديدًا أمام أبعاد الكون المذهلة، وكذلك الجان، وكلاهما أقل من مجرد التفكير فى إمكان الهروب من ملك الله الذى لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه . . . !!!

ثالثا: بالنسبة إلى إرسال شواظ من نار ونحاس على كل من يحاول النفاذ من أقطار السماوات والأرض بغير سلطان من الله (تعالى)

قد أجمع قدامى المفسرين ومحدثوهم على أن لفظة شواظ هنا تعنى اللهب الذى لا دخان له، وكلمة =

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ

= نحاس تعنى الدخان الذى لا لهب فيه، أو تعنى فلز النحاس الذى نعرفه جميعًا، وهو فلز معروف بدرجة انصهاره العالية (١٠٨٣م) درجة غليانه الأعلى (٢٥٦٧م).

ومن الثابت علميًا أن العناصر المعروفة لنا تتخلق فى داخل النجوم بعملية ((الاندماج النووى)) لنوى ذرات الإيدروجين، فينتج عن ذلك نوى ذرات العناصر الأثقل بالتدريج حتى يتحول لب النجم إلى حديد.

والتفاعل النووى قبل تكون ذرات الحديد هو تفاعل منتج للحرارة التى تصل إلى بلايين الدرجات المئوية، ولكن عملية الاندماج النووى المنتجة للحديد عملية مستهلكة للحرارة، وبالتالى لطاقة النجم حتى تضطره إلى الانفجار؛ مما يؤدى إلى تناثر العناصر التى تكونت بداخله - بما فيها الحديد _ فى صفحة السماء لتدخل هذه العناصر فى مجال جاذبية أجرام تحتاج إليها بتقدير من الله (تعالى). أما العناصر ذات النوى الأثقل من ذرة الحديد فتتخلق بإضافة اللبنات الأولية للمادة إلى نوى ذرات الحديد السابحة فى صفحة السماء حتى تتكون بقية المائة وخمسة من العناصر المعروفة لنا، وهذه أيضًا تنزل إلى جميع أجرام السماء بقدر معلوم. ولما كان عنصر النحاس أعلى من الحديد فى كل من وزنه وعدده الذرى (الوزن الذرى لنظائر الحديد ٥٤ و ٥٦ و ٥٧ والوزن الذرى للنحاس ٦٣,٥٤٦ والعدد الذرى للحديد ٢٦ بينما العدد الذرى للنحاس ٢٩)، وبناء على ذلك فإن عنصر النحاس يتخلق فى صفحة السماء الدنيا باندماج نوى ذرات الحديد مع بعض اللبنات الأولية للمادة، وهذا يجعل صفحة السماء الدنيا زاخرة بذرات العناصر الثقيلة، ومنها النحاس.

هذه الملاحظة تشير إلى أن لفظة نحاس فى الآية الكريمة تعنى فلز النحاس؛ لأن التأويل هنا لا داعى له على الإطلاق، فالنحاس وهو منصهر وتغلى قطراته فى صفحة السماء يعد عقابًا رادعًا لكل محاولة إنسية أو جنية لاختراق أقطار السماوات والأرض.

وقد اتصل بى أخ كريم هو الدكتور عبد الله الشهابى وأخبرنى بأنه زار معرض الفضاء والطيران فى مدينة واشنطن دى سى الذى يعرض نماذج الطائرات من بداياتها الأولى إلى أحدثها، كما يعرض نماذج لمركبات الفضاء، وفي المعرض شاهد قطاعًا عرضيًا فى كبسولة أبوللو، وأذهله أن يرى على سطحها خطوطاً طولية عديدة غائرة فى جسم الكبسولة ومليئة بكربونات النحاس (جنزار النحاس)، وقد لفتت هذه الملاحظة نظره، فذهب إلى المسئول العلمى عن تلك الصالة وسأله: هل السبيكة التى صنعت منها الكبسولة يدخل فيها عنصر النحاس؟ فنفى ذلك نفيًا قاطعًا، فأشار إلى جنزار النحاس على جسم الكبسولة وسأله: من أين جاء هذا؟ فقال له: من نوى ذرات النحاس المنتشرة فى صفحة السماء التى تضرب جسم الكبسولة طوال حركتها صعودًا وهبوطًا من السماء، وحينما تعود إلى الأرض وتمر بطبقات بها الرطوبة وثاني أكسيد الكربون فإن هذه الذرات النحاسية التى لصقت بجسم الكبسولة تتحول بالتدريج إلى جنزار النحاس. ويقول الدكتور الشهابى: إنه على الفور تراءت أمام أنظاره الآية القرآنية الكريمة التى يقول فيها ربنا (تبارك وتعالى): «يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران» هذه الملاحظة أكدت لى ما ناديت به طويلاً بأن لفظة نحاس فى الآية تعنى فلز النحاس، ولا تحتاج إلى أدنى تأويل *«تفسير الآيات الكونية فى القرآن الكريم»* جـ ٤، صفحات ٦٦-٧٠ ـ مكتبة الشروق الدولية.

بالنَّواصي وَالأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥) ﴾

ولكن لن تتجاوزوا فى نفاذكم قدرًا محددًا، بعده يُرسل عليكم ﴿ شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ ﴾ لهب خالص من نار ومن نحاس فلا تتغلبان عليه ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ فإذا تصدعت السماء فصارت على شكل وردة كالزيت الأحمر ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فى هذا اليوم العصيب تظهر أعمال الجميع، فلا حاجة لسؤال المذنب ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ويظهر المجرمون بعلامات ذنوبهم ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ ﴾ فتأخذهم الملائكة من مقدمات رؤوسهم ومن أقدامهم إلى مصيرهم ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ هذه هى جهنم التى كنتم تكذبون بها فى دنياكم لتستمروا فى ضلالكم وعبادة أهوائكم قد رأيتموها الآن رأى العين ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ فمستقرهم ومثواهم بين جهنم وبين ماء بالغ الحرارة ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

* * *

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) ﴾

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ قالت الأديان الإبراهيمية الثلاثة: رأس الحكمة مخافة الله، وقال الطبرى: [عن مجاهد قال: الرجل يهم بالذنب فيذكر مقامه بين يدى الله فيتركه، فله جنتان] ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فى تلكما الجنتين ﴿ أَفْنَانٍ ﴾ فروع وأغصان تحمل أطايب الطعام ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وفيهما ﴿ عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ بأفضال وأنعام الرحمن ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وفى الجنتين زوجان من كل أنواع الفاكهة ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ينعم أصحاب الجنة بالراحة فيها ﴿ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ على آرائك وسرائر من حرير سميك ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ وثمار الجنتين قريب المنال ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وفيهما أزواج لكم لا ينظرن ولا يلتفتن إلا لأزواجهن ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ لم يمسهن

﴿ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ لأنهن خلقن مقصورات لأزواجهن ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ شبه القرآن حور الجنة بالحلى الثمينة الجميلة من الياقوت والمرجان ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ سبحان الرحمن قائل ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ والإنسان أحد طرفى الآية، والتى يمكن تأويلها بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بدأ بالإحسان للبشر، بخلقهم وتسخير السماوات والأرض لهم، وتكليفهم بالخلافة على الأرض، فالجدير بهم أن يحسنوا العمل، جزاء لإحسان ربهم عليهم من مبتدأ أمرهم، فإذا أحسنوا العمل، جاءهم الإحسان النهائى، بأن يدخلهم الله جنته، ويتفضل عليهم برضاه ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

* * *

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ(٧٨) ﴾

وهناك جنتان أقل درجة من السابقتين ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ هاتان الجنتان ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ لونهما أخضر قريب إلى السواد من اكتمال النضج ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وفيهما عينان فوّارتان ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فيهما فاكهة ونخل ورمان ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وفيهما زوجات خيرات الأخلاق حسان الوجوه ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ حور مقصورات النظر والاهتمام على أزواجهن يعشن فى خيام ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ لم يمسسهن بشر ولا جان ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وهم جميعًا ينعمون بطيب العيش والراحة ﴿ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ وسائد أو فرش مرتفعة لونها أخضر مبهج ﴿ وَعَبْقَرِيٍّ ﴾ بُسُط عجيبة فى جمالها وراحتها ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ تبارك اسم ربك ولى تلك النعم المباركة ﴿ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا (٦) وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢)﴾

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ إذا قامت القيامة ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ لا يمكن لأحد تكذيبها أو منعها أو رفضها ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ خافضة للأشقياء من الكفار والمشركين رافعة للسعداء من المؤمنين الذين عملوا الصالحات ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ تفتتت الجبال تفتيتًا ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً﴾ غباراً ﴿مُّنْبَثًّا﴾ منتشراً ﴿وَكُنتُمْ﴾ أيها الناس ثلاثة أنواع من الأزواج: أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، و﴿السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ السابقون بالإيمان والأعمال الصالحة في الدنيا، ففي الآخرة ﴿أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ من ربهم في ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

***

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لَا

(*) إلا الآيتان ٨١، ٨٢ فمدنيتان.

يُصَدَّعُونَ عَنهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦)﴾

جماعة كثيرة من الأمم الأولى وجماعة قليلة من الأمم الأخيرة ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ سرر منسوجة جالسين عليها يواجه بعضهم بعضًا، يطوف عليهم لخدمتهم ولدان لا يكبرون ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ يشربون بها خمر الجنة الذى يتدفق من العيون ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ لا تسبب لهم صداعًا، ولا تستنفذ عقولهم وتدمرها كخمر الدنيا، ويأكلون الفاكهة التى يختارونها، ولحم الطير الذى يشتهونه ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ وأزواجهم نساء وضيئات واسعات الأعين ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ كاللآلىء المصونة ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فى الدنيا، لا يسمعون فى الجنة كلامًا لا قيمة له من هراء الدنيا، ولا كلامًا يأثم قائله وسامعه إذا سكت عليه ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾.

***

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (٤٠)﴾

أما أصحاب اليمين، الذين هم فى درجة أقل من السابقين، فهم ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ فى شجر نبق خال من الشوك ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ شجر موز مثمر من أسفله إلى أعلاه ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ فى ظلال وارفة ممتدة ﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ مصبوب لا يحتاج إلى جهد للحصول عليه وفاكهة كثيرة، لا تنفد ولا تمتنع عنهم ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ وأسرة عالية عن الأرض ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا(٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ أنشأ الله لأصحاب اليمين زوجات أبكارًا، متحببات لأزواجهن، فى أعمار متساوية، وكما ذكرنا سابقًا، فقد يكن هن زوجاتهم فى الدنيا من المؤمنات الصالحات؛ أنشأهن الرحمن إنشاء جديدًا يوافق نعيم الجنة بدلاً من هيئاتهن فى الدنيا، وكما بينت الأحاديث، فأهل الجنة كلهم شباب لا يهرمون فيها، ولا يمرضون، ولا يصيبهم ضرر ولا سوء، سواء فى الخلق أو الخُلُق ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ جماعة كثيرة من الأمم الأولى، وجماعة كثيرة من الأمم الأخيرة.

***

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦) ﴾

أما أصحاب الشمال، وهم الضالون المكذبون بالدين، فهم ﴿ فِي سَمُومٍ ﴾ فى حر نار ينفذ داخل مسامهم ﴿ وَحَمِيمٍ ﴾ ماء بالغ السخونة ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ وظل دخان أسود ساخن، ويحموم هو يفعول الأحم، أى الأسود، والعرب تقول أسود يحموم إذا كان شديد السواد ﴿ لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ ﴾ فقد كانوا فى حياتهم الدنيا مترفين فى اتباع أهوائهم، وكانوا مصرين على الذنب الكبير، الإلحاد أو الشرك أو النفاق أو خليط منها ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴾ فقد كذبوا بأن يبعثهم الله وآباءهم للحساب، فهم يريدون التمتع فى دنياهم بأهوائهم، وبموازينهم، وتحججوا: هل يستطيع أحد أن يبعثنا بعد أن أصبحنا ترابًا وعظامًا فى القبور؟ قل لهم يا محمد ﴿ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ عند الله ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَاالضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿ لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴾ وبئس الطعام ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ فهذا امتلاء تعذيب ﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴾ فشاربون بئس الشراب المغلى ﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴾ شرب الإبل التى بها داء الهيام، لا يرتوى ظمؤها مهما شربت ﴿ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾.

***

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ (٦٢) ﴾

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ ﴾ نحن ابتدأنا خلقكم من عدم، فالأجدر بكم أن تقروا بقدرتنا على إعادتكم يوم البعث ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴾ أفرأيتم ما تقذفونه فى الأرحام من النطف، حتى هذه النطف نحن الذين نخلقها وليس أنتم، نضبطها ونقدرها، ونطورها،

ومنها نخرج ذرياتكم، وليس لكم يد فى ذلك ولا قدرة، وكما قدرنا نشأتكم الأولى[1] ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ فقد قدرنا أجل كل مخلوق منكم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ولن يعجزنا أحد فى أن نبدل أحوالكم وننشأكم فى أحوال أخرى، لا يعلمها إلا الله ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ﴾ حين لم تكونوا شيئًا مذكورًا، ثم خلق الله آدم وحواء من طين، ثم أخرج من مائهما المهين البشر ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فهل تتذكرون وتعتبرون بأن الذى خلق النشأة الأولى قادر على بعثكم من القبور؟.

***

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧)﴾

أفرأيتم ما تبذرونه من الحب فى الأرض، ءأنتم تنبتون منه الزرع أم نحن المنبتون؟ ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ هشيمًا قبل أن يكتمل نضجه ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ تتعجبون من جفافه أو تعفنه بعد خضرته، ولقلتم ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ إنا غارمون خاسرون، ولقال بعضكم حين يتبين حقيقة الخسران ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ من الرزق.

***

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠)﴾

هل تأملتم الماء الذى تشربونه عذبًا ﴿أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ من السحاب ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ ولو نشاء لجعلناه ماءً مالحًا، فهلاّ تشكرون؟.

***

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤)﴾

أفرأيتم النار التى تشعلونها[2] ﴿أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾ أأنتم خلقتم

(١) انظر لزغلول النجار «*تفسير الآيات الكونية فى القرآن الكريم*»، جـ ٤، صفحات ٧٩ ـ ٨٥.

(٢) أدى اكتشاف الإنسان القديم لفوائد النار، سواء فى الدفاع عن نفسه ضد الحيوان، أو فى الإضاءة والتدفئة، أو فى طهى الطعام، وأخيرًا فى تشغيل المعادن، إلى قفزات كبيرة فى تطور الحضارة، ونحن نراها اليوم شيئًا مألوفًا معتادًا لا يلفت نظرنا لأى شىء.

الشجرة التى تشعلون منها النار؟ والمقصود بالشجرة هنا أصل النار، سواء من شجرة أو من قدح حجرين، أو ما استجد وما سيستجد فى طرق إشعال النار ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ فى النار شتى أنواع التذكر والاعتبار: كيف تخرج النار من الشجر الأخضر؟ ونحن نعرف أن كثيراً من الحرائق تنشب فى الغابات من حرارة الجو. كيف تحرق النار من يلمسها وأصلها الشجر، أو الوقود الذى أصله بقايا نبات وحيوان؟ كيف يخرج النبات الأكسجين اللازم للاشتعال؟ كيف لخواص النار كل ما تجلبه من فوائد وأخطار للبشرية وعليها؟ وماذا يكون شكل نار الآخرة؟ ﴿وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ المسافرين الذين ينزلون القواء، أى القفر، فالنار من متاعهم الذى يحتاجونه، سواء للإضاءة أو للدفاع عن أنفسهم، أو للطهى، أو للتدفئة، أو غير ذلك ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ تنزيهًا عما يقول الجاحدون.

***

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)﴾

﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ قال مخلوف: [لا (هى) مزيد للتأكيد فى قول أكثر المفسرين، وقيل: زيدت جريًا على سنن العرب من زيادتها قبل القسم، كما فى: لا وأبيك! كأنهم ينفون ما سوى المُقسم عليه فيفيد التأكيد. وقيل: هى للنفى، أى لا أقسم بها؛ إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم، فضلاً عن هذا القسم العظيم] ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ أولتها أكثر التفاسير بأنها مغارب النجوم، ولكن لعلماء اليوم تأويل آخر. قال زغلول النجار: [وهذا القسم القرآنى العظيم بمواقع النجوم يشير إلى سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى إحدى حقائق الكون المبهرة، والتى تقول: إنه نظرًا للأبعاد الشاسعة التى تفصل نجوم السماء عن أرضنا، فإن الإنسان على هذه الأرض لا يرى النجوم أبدًا، ولكنه يرى مواقع مرت بها النجوم ثم غادرتها، وعلى ذلك فهذه المواقع كلها نسبية، وليست مطلقة، ليس هذا فقط، بل إن الدراسات الفلكية الحديثة قد أثبتت أن نجومًا قديمة قد خبت أو تلاشت منذ أزمنة بعيدة، والضوء الذى انبثق منها فى عدد من المواقع التى مرت بها لا يزال يتلألأ فى ظلمة السماء فى كل ليلة من ليالى الأرض إلى اليوم

الراهن، كما أنه نظراً لانحناء الضوء فى صفحة الكون فإن النجوم تبدو لنا فى مواقع ظاهرية غير مواقعها الحقيقية، ومن هنا كان هذا القسم القرآنى بمواقع النجوم، وليس بالنجوم ذاتها ـ على عظم قدر النجوم ـ التى كشف العلم عنها أنها أفران كونية عجيبة يخلق الله (تعالى) لنا فيها كل صور المادة والطاقة التى ينبنى منها هذا الكون المدرك[1] ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ وربما نكون قد علمنا النذر اليسير بما نقلناه عن زغلول النجار، وما أفاض هو فيه فى كتابه، وربما نعرف المزيد فى المستقبل ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ هذا القرآن الذى أنزلناه على محمد كتاب كريم أنزله رب كريم، يدعو إلى مكارم الأخلاق، ومن يتبعه يرتقى إلى حياة كريمة فى الدنيا ومقام كريم فى الآخرة ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ محفوظ ومصون ﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ وهو اللوح المحفوظ ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فهو ليس بقول شاعر ولا ساحر ولا مجنون كما يزعمون ﴿أَفَبِهَـذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ تلينون القول وتنافقون ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قيل معناها: وتجعلون شكركم أنكم تكذبون، وقيل المقصود بها من يقول أُمطرنا بنوء كذا أو نوء كذا، بدلاً من أن يقول رزقنا الله مطراً، وقيل المقصود: تجعلون رزقكم من القرآن والرسالة الخاتمة التكذيب بدلاً من أن تجعلوه الهدى والإيمان والعمل الصالح فى الطريق المستقيم لرب العالمين، وقيل: تختارون أن ترتزقوا بتكذيب القرآن والرسالة الخاتمة[2].

***

﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦)﴾

(١) من أراد الاستزادة يمكنه الرجوع لكتاب «*تفسير الآيات الكونية فى القرآن الكريم*» جـ ٤ صفحات ١٢٥ - ١٣١.

(٢) وما أوضح هذا التأويل الأخير اليوم؛ حيث يتجسد أمامنا من يرتزق من ذلك، ومن يدعو بكل وسيلة لإفراغ حياة المسلم من شريعته، ومن الأخوة الإسلامية، التى هى الخطوة الأولى للوحدة العربية والوحدة الإسلامية، تماثل الاتحاد الأوربى، وتماثل الروابط الأمريكية الأوروبية.

فإذا بلغت روح المحتضر الحلقوم، كناية عن خروج روحه، وأنتم ترونه أمامكم يحتضر، فهل تستطيعون إمساك روحه فى جسده، أو تستطيعون إرجاعها إن خرجت؟ فإن كنتم صادقين فى رفضكم عالم الغيب، وتمسككم بماديات عالم الشهادة التى ترونها بمداركم الحسية المحدودة، ورفضكم إلهًا خالقًا ربًا، افعلوا ذلك، واعلموا أننا أقرب للمحتضر منكم ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ إن كان الميت من المقربين إلى الله وهم السابقون الذين ذكرتهم السورة فى أولها ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ فهو فى جنة نعيم، فيها راحة من أىّ عناء، وفيها أطيب الروائح ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ وأما أصحاب اليمين، فسلام عليهم وسلام لهم من أصحاب اليمين ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ وهم أصحاب الشمال ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ فنزولهم فى ماء مغلى ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ وحرق فى جحيم ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ لا يشوبه ظن ولا تكذيب ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) ﴾

نزه الله عن الشرك وعن النقائص كل ما في السماوات والأرض، وذلك مثل سجودها لله، طوعًا أو كرهًا، فهناك ما منحه الله القدرة على الاختيار، ومنها ما يسبح ويسجد بدون اختيار، ولكن كلها تسبحه وتسجد له وتطيعه باتباع قوانينه ونواميسه التي لا تستطيع انتهاكها ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ هو الأول قبل كل شيء، فهو خالق كل شيء، وهو الآخر بعد كل شيء، فكل مخلوق له نهاية كما له بداية، ويبقى بعد كل مخلوق ذو الجلال والإكرام، وهو الظاهر بأدلة وآثار ظهوره، ومنها خلقه، وهو الباطن فهو أصل كل شيء، وقال مخلوف: [المحتجب بكنه ذاته عن إدراك الأبصار والحواس والعقول، أو العالم بما بطن ـ أي بما خفي ـ من الأمور، والله أعلم] ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير؟.

***

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) ﴾.

خلق السماوات والأرض ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ لا يعلمها إلا الله، فهناك يوم مقداره ألف سنة، وهناك يوم مقداره خمسون ألف سنة ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ سبق شرحها، فارجع للآيات، [الأعراف: ٥٤]، [يونس: ٣]، [الرعد: ٢]، [طه: ٥]، [الفرقان: ٥٩]، [السجدة: ٤] ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ يعلم كل ما يدخل الأرض وما يخرج منها ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ وما ينزل من السماء وما يصعد إليها ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ فهو أقرب إلينا من حبل الوريد، وهل هناك مكان إلا هو خالقه؟ وهل نستطيع أن نذهب إلى مكان إلا بحوله وقوته ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وهل نستطيع أن نفعل شيئًا إلا بقدرته؟.

***

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦)﴾

له وحده ملك السموات والأرض، وإليه وحده ترجع كل شئونهما ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ يدخل الليل فى النهار ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ ويدخل النهار فى الليل، وهو عليم بما تخفى الصدور.

***

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١)﴾

يأيها الناس آمنوا بالله ورسوله الذى أرسله، وبكتابه الذى أنزله ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ فالإنفاق هو تصديق الإيمان، والمال هو مال الله ونحن مستخلفون فيه، ينظر ماذا نفعل به ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا﴾ فى سبيل الله، من زكاة وصدقة، لهم أجر كبير

﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ وما لكم أيها الناس لا تؤمنون بالله، وقد جاءكم رسوله بكتابه، وقد أخذ ربكم ميثاقكم وأنتم فى ظهور آبائكم، كما جاء فى آية [الأعراف: ١٧٢] قيل إن هذه الآية فى أهل الكتاب، وقيل فى المنافقين، وقيل فى المؤمنين، وهى تحتمل كل ذلك ﴿ هُوَالَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ محمد أدلة واضحة يهديكم بها لتخرجوا من ظلمات الضلال إلى نور الهداية، رأفة من الله ورحمة بكم، روى البخارى أن رسول الله (ﷺ) قال يومًا لأصحابه: «أى المؤمنين أعجب إليكم إيمانًا؟»، قالوا: الملائكة، قال: «وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟»، قالوا: فالأنبياء، قال: «وما لهم لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم؟»، قالوا: فنحن، قال «وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟ ولكن أعجب المؤمنين إيمانًا قوم يجيئون بعدكم، يجدون صحفًا يؤمنون بما فيها» رواه أحمد فى «مسنده»، والخطيب فى «شرف أصحاب الحديث» ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ فإذا كان الرزق بيد الله، وأمركم أن تنفقوا فى سبيله، فماذا يمنعكم؟ ﴿ لا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ ﴾ قبل فتح مكة، فأولئك أنفقوا والمسلمون مستضعفون، يتربص بهم كل العرب ﴿ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ﴾ من بعد فتح مكة لتبدل الأحوال من الضعف إلى القوة ومن الخوف إلى الأمن، حتى لو اشتركوا فى بقية الحروب ﴿ وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ﴾ الجزاء الطيب ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ يحكم بالعدل، ثم تدعو الآية كل المؤمنين للإنفاق فى سبيل الله، وتبين أن من ينفق فى سبيل الله كمن يقرض الله قرضًا حسنًا، فسبحان خالق النطف الخصيمة، وسبحان من عنده خزائن الرزق التى لا تنفد، وسبحان الله رب غفور شكور، أفلا يعقل الكانزون؟ أفلا يستحى البخلاء والممسكون؟ أفلا يتعظ أولو العقول والضمائر؟.

***

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِىَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥) ﴾

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ يوم الحساب ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ يشع نور إيمانهم وعملهم الصالح من أمامهم ومن يمينهم، وقال مخلوف المراد كل الجهات وذكرت الآية الأيمان لشرفها، وتتلقاهم الملائكة قائلة ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ بينما يترجاهم المنافقون والمنافقات قائلين ﴿انظُرُونَا﴾ أمهلونا حتى نقتبس من نوركم ما قد ينفعنا، فيسمعون الرفض ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ من عملكم السيئ في الدنيا، أو من نار جهنم في الآخرة، وذلك من باب التهكم والاستهزاء ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ فالرحمة تجاه المؤمنين والمؤمنات، والعذاب تجاه المنافقين والمنافقات ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ ينادي المنافقون على المؤمنين ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ ألم نعش سويًا معكم فلماذا تتخلون عنا؟ قال المؤمنون ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ بتفضيلكم غرور الدنيا على الآخرة وتربصتم سوءًا بالمؤمنين وكذبتم بالآخرة ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ حتى انتهى أجلكم ﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ وغرتكم أهواؤكم وأمانيكم ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لا يقبل فداء من المنافقين والكافرين، ومأواهم النار، هي لكم وأنتم لها ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

***

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾

ألم يحن الأوان للذين آمنوا ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ فيعملوا صالحًا ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ اليهود والنصارى ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ طال الزمن بينهم وبين أنبيائهم، أو طال عمرهم وطال ترفهم ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ عن ذكر الله ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ عن طاعة الله ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وهو كما يحيي الأرض بعد موتها، يحيي القلوب بعد موتها إذا لجأت إليه، ويحيي الأموات ليوم الحساب ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

***

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾

من يقرض الله قرضًا حسنًا، يريد به وجهه الكريم، من المتصدقين والمتصدقات، يضاعف الله أجره، ويكرمه بأن يجعل الحسنة بأضعافها إلى سبعمائة ضعف، ويزيد لمن يشاء ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ ﴾ وكما بينت آيات وأحاديث كثيرة، فالإيمان يظهر بالعمل الصالح، وتصدقه الزكاة وتثبته ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ يسعى بين أيديهم، أما ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ فهم ﴿ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾.

***

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) ﴾

اعلموا يا أولى الألباب أن كل متع الحياة الدنيا ما هى إلا لعب ولهو وزينة فانية غير باقية، وتفاخر زائف لبعضكم على بعض، ومكاثرة فى الأموال والأولاد، وهى شبيهة بأمطار أخرجت نباتًا يبلغ أشده فيعجب به الكفار على أنه أهم وأفضل ما فى الدنيا، ولكنه سرعان ما يبدأ فى الاصفرار واليبوس، ليصير حطامًا، وفى الآخرة عذاب شديد، أو مغفرة من الله ورضوان لمن آمن وعمل صالحًا ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ قال سعيد بن جبير: [الدنيا متاع الغرور إذا ألهتك عن طلب الآخرة، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله وطلب الآخرة، فنعم المتاع ونعم الوسيلة] ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ بالتوبة وعمل الصالحات ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ وذلك من فضل الله على عباده، يؤتيه من يشاء ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾.

***

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤) ﴾

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ مثل قحط أو نقص فى الثمرات، أو وباء، أو دمار على مستوى فردى أو جماعى ﴿ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ من مرض أو موت ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ

﴿أَن نَبْرَأَهَا﴾ فى الكتاب المحفوظ قبل أن تقع بكم ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فأمره كن فيكون ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ لكى لا تحزنوا على ما فاتكم من حظوظ الدنيا ﴿وَلَا تَفْرَحُوا﴾ فرح بطر وتكبر ـ وتقولوا ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨] كما قال قارون وأمثاله من المتكبرين المغرورين ـ لأن الله لا يحب ﴿كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ بنفسه ﴿فَخُورٍ﴾ ولا يحب ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ يمسكون أيديهم عن الإنفاق، بل ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ ومن يعرض عن سبيل الله والإنفاق فى سبيله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

***

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ(٢٥)﴾

أرسل الله رسله بالبينات، وأنزل معهم الكتب السماوية، وأمرهم بإقامة الحق، والعدل بين الناس ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ أى فيه قوة شديدة فى أدوات الحرب، وله منافع صناعية كثيرة أخرى فى حياة الناس، وقال زغلول النجار: [الآية الكريمة التى نحن بصددها تؤكد أن الحديد قد أنزل إنزالاً كما أنزلت جميع صور الوحى السماوى، وأنه يمتاز ببأسه الشديد، وبمنافعه العديدة للناس، وهو من الأمور التى لم يصل العلم الإنسانى إلى إدراكها إلا فى أواخر الخمسينيات من القرن العشرين.

وهنا يبرز التساؤل: كيف أنزل الحديد؟ وما هو وجه المقارنة بين إنزال وحى السماء وإنزال الحديد؟ ما هو بأسه الشديد؟ وما هى منافعه للناس[1]؟]

---

(١) حديد الأرض فى العلوم الكونية

قال زغلول النجار: بينما لا تتعدى نسبة الحديد فى شمسنا ٠,٠٠٣٧٪ فإن نسبته فى التركيب الكيميائى لأرضنا تصل إلى ٣٥,٩٪ من مجموع كتلة الأرض المقدرة بحوالى ستة آلاف مليون مليون مليون طن، وعلى ذلك فإن كمية الحديد فى الأرض تقدر بأكثر من ألفى مليون مليون مليون طن، ويتركز الحديد فى قلب الأرض، أو ما يعرف باسم «لب الأرض»، وتصل نسبة الحديد فيه إلى ٩٠٪ ونسبة النيكل (وهو من مجموعة الحديد) إلى ٩٪، وتتناقص نسبة الحديد من لب الأرض إلى الخارج باستمرار حتى تصل إلى ٥,٦٪ فى قشرة الأرض.

وإلى أواخر الخمسينيات من القرن العشرين لم يكن لأحد من العلماء إمكانية التصور (ولو من قبيل التخيل) أن هذا القدر الهائل من الحديد قد أنزل إلى الأرض من السماء إنزالاً حقيقيّا!!.

كيف أنزل؟ وكيف تسنى له اختراق الغلاف الصخرى للأرض بهذه الكميات المذهلة؟ وكيف أمكنه الاستمرار فى التحرك بداخل الأرض حتى وصل إلى لبها؟ وكيف شكل كلاّ من لب الأرض الصلب ولبها السائل على هيئة كرة ضخمة من الحديد والنيكل يحيط بها وشاح منصهر من التركيب نفسه، ثم أخذت نسبته فى التناقص باستمرار فى اتجاه قشرة الأرض الصلبة؟ =

= لذلك لجأ كل المفسرين للآية الكريمة التى نحن بصددها إلى تفسير « . . . وأنزلنا الحديد . . . » بمعنى الخلق والإيجاد والتقدير والتسخير؛ لأنه لما كانت أوامر الله (تعالى) وأحكامه تلقى من السماء إلى الأرض جعل الكل نزولاً منها، وهو صحيح، ولكن فى أواخر القرن العشرين ثبت لعلماء الفلك والفيزياء الفلكية أن الحديد لا يتكون فى الجزء المدرك من الكون إلا فى مراحل محددة من حياة النجوم تسمى بـ «العماليق الحمر»، و «العماليق العظام»، والتى بعد أن يتحول لبها بالكامل إلى حديد تنفجر على هيئة المستعرات العظام، وبانفجارها تتناثر مكوناتها ـ بما فيها الحديد ـ فى صفحة الكون، فيدخل هذا الحديد بتقدير من الله فى مجال جاذبية أجرام سماوية تحتاج إليه مثل أرضنا الابتدائية التى وصلها الحديد الكونى وهى كومة من الرماد، فاندفع إلى قلب تلك الكومة بحكم كثافته العالية وسرعته المندفع بها، فانصهر بحرارة الاستقرار فى قلب الأرض وصهرها، ومايزها إلى سبع أرضين!! وبهذا ثبت أن الحديد فى أرضنا، بل فى مجموعتنا الشمسية بالكامل قد أنزل إليها إنزالاً حقيقيّا.

فى دراسة لتوزيع العناصر المختلفة فى الجزء المدرك من الكون لوحظ أن غاز الإيدروچين هو أكثر العناصر شيوعًا؛ إذ يكوّن أكثر من ٧٤٪ من مادة الكون المنظور، ويليه فى الكثرة غاز الهيليوم الذى يكوّن حوالى ٢٤٪ من مادة الكون المنظور، وأن هذين الغازين ـ وهما يمثلان أخف العناصر وأبسطها بناء ـ يكونان معًا أكثر من ٩٨٪ من مادة الجزء المدرك من الكون، بينما باقى العناصر المعروفة لنا وهى ١٠٣ عنصر تكوّن مجتمعة أقل من ٢٪ من مادة الكون المنظور، وقد أدت هذه الملاحظة إلى الاستنتاج المنطقى أن أنوية غاز الإيدروچين هى لبنات بناء جميع العناصر المعروفة لنا، وأنها جميعًا قد تخلقت باندماج أنوية هذا الغاز البسيط مع بعضها البعض فى داخل النجوم بعملية تعرف باسم «عملية الاندماج النووى» تنطلق منها كميات هائلة من الحرارة، وتتم بتسلسل من أخف العناصر إلى أعلاها وزنًا ذريّا وتعقيدًا فى البناء.

فشمسنا تتكون أساسًا من غاز الإيدروچين الذى تندمج أنويته مع بعضها البعض لتكون غاز الهيليوم، وتنطلق طاقة هائلة، ويتحكم فى هذا التفاعل (بقدرة الخالق العظيم) عاملان هما: زيادة نسبة غاز الهيليوم المتخلق بالتدريج، وتمدد الشمس بالارتفاع المطرد فى درجة حرارة لبها، وباستمرار هذه العملية تزداد درجة الحرارة فى داخل الشمس تدريجيّا، وبازديادها ينتقل التفاعل إلى المرحلة التالية التى تندمج فيها نوى ذرات الهيليوم مع بعضها البعض منتجة نوى ذرات الكربون ١٢، ثم الأكسچين ١٦، ثم النيون ٢٠، وهكذا.

وفى نجم عادى مثل شمسنا التى تقدر درجة حرارة سطحها بحوالى ستة آلاف درجة مئوية، وتزداد هذه الحرارة تدريجيّا فى اتجاه مركز الشمس حتى تصل إلى حوالى ١٥ مليون درجة مئوية، يقدر علماء الفيزياء الفلكية أنه بتحول نصف كمية الإيدروچين الشمسى تقريبًا إلى الهيليوم، فإن درجة الحرارة فى لب الشمس ستصل إلى مائة مليون درجة مئوية، مما يدفع بنوى ذرات الهيليوم المتخلقة إلى الاندماج فى المراحل التالية من عملية الاندماج النووى مكونة عناصر أعلى فى وزنها الذرى مثل الكربون، ومطلقة كمًّا أعلى من الطاقة، ويقدر العلماء أنه عندما تصل درجة حرارة لب الشمس إلى ستمائة مليون درجة مئوية، يتحول الكربون إلى صوديوم ومغنيسيوم ونيون، ثم تنتج عمليات الاندماج النووى التالية عناصر الألومنيوم، والسيليكون، والكبريت، والفوسفور، والكلور، والأرجون، والبوتاسيوم، والكالسيوم على التوالى، مع ارتفاع مطرد فى درجة الحرارة حتى تصل إلى ألفى مليون درجة مئوية حين يتحول لب النجم إلى مجموعات التيتانيوم، والڤاناديوم، والكروم، والمنجنيز، والحديد (الحديد والكوبالت والنيكل) ولما كان تخليق هذه العناصر يحتاج إلى درجات حرارة مرتفعة جدّا لا تتوافر إلا فى مراحل خاصة من مراحل حياة النجوم تعرف باسم «العماليق الحمر» و «العماليق العظام» وهى مراحل توهج شديد فى حياة النجوم، فإنها لا تتم فى كل نجم من نجوم السماء، ولكن حين يتحول لب النجم =

﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ ليُظهر الله إلى عالم الشهادة، وليعرف الناس من ينصر الله بالغيب. قال محمد الغزالى: [سورة الحديد تنبه إلى أن المسلمين شركاء فى سباق عالمى محموم لا ينجح فيه إلاّ من استعد له وتهيأ لمراحله وقدر الفروق بين خطواته وخطوات خصومه، لقد خلق الله الحديد ذا خصائص عظيمة فى صناعات الحرب والسلام معًا، فهل درسنا هذه الخصائص وانتفعنا بها فى نشاطنا المدنى والعسكرى؟ وأرينا الله من نشاطنا ما يرضيه؟ إن أمتنا الإسلامية عالة على غيرها فى ذلك الميدان، فلما أردنا أن نصنع شيئًا اتجهنا

= إلى الحديد فإنه يستهلك طاقة النجم بدلاً من إضافة مزيد من الطاقة إليه؛ وذلك لأن نواة ذرة الحديد هى أشد نوى العناصر تماسكًا، وهنا ينفجر النجم على هيئة ما يسمى باسم «المستعر الأعظم» من النمط الأول أو الثانى، حسب الكتلة الابتدائية للنجم، وتتناثر أشلاء النجم المنفجر فى صفحة السماء لتدخل فى نطاق جاذبية أجرام سماوية تحتاج إلى هذا الحديد، تمامًا كما تصل النيازك الحديدية إلى أرضنا بملايين الأطنان فى كل عام.

ولما كانت نسبة الحديد فى شمسنا لا تتعدى ٠,٠٠٣٧٪ من كتلتها، وهى أقل بكثير من نسبة الحديد فى كلٍّ من الأرض والنيازك الحديدية التى تصل إليها من فسحة الكون، ولما كانت درجة حرارة لب الشمس لم تصل بعد إلى الحد الذى يمكّنها من إنتاج السيليكون، أو المغنسيوم، فضلاً عن الحديد، كان من البديهى استنتاج أن كلاً من الأرض والشمس قد استمد ما به من حديد من مصدر خارجى عنه فى فسحة الكون، وأن أرضنا حينما انفصلت عن الشمس لم تكن سوى كومة من الرماد المكون من العناصر الخفيفة، ثم رجمت هذه الكومة بوابل من النيازك الحديدية التى انطلقت إليها من السماء فاستقرت فى لبها بفضل كثافتها العالية وسرعاتها الكونية فانصهرت بحرارة الاستقرار، وصهرت كومة الرماد ومايزتها إلى سبع أرضين: لب صلب على هيئة كرة ضخمة من الحديد (٩٠٪) والنيكل (٩٪) وبعض العناصر الخفيفة من مثل الكبريت، والفوسفور، والكربون (١٪)، يليه إلى الخارج لب سائل له نفس التركيب الكيميائى تقريبًا، ويكوّن لب الأرض الصلب والسائل معًا حوالى ٣١٪ من مجموع كتلة الأرض، ويلى لب الأرض إلى الخارج وشاح الأرض المكون من ثلاثة نطق، ثم الغلاف الصخرى للأرض، وهو مكون من نطاقين، وتتناقص نسبة الحديد من لب الأرض إلى الخارج باستمرار حتى تصل إلى ٦,٥٪ فى قشرة الأرض، وهى النطاق الخارجى من غلاف الأرض الصخرى.

من هنا ساد الاعتقاد بأن الحديد الموجود فى الأرض والذى يشكل ٣٥,٩٪ من كتلتها لابد أنه قد تكون فى داخل عدد من النجوم المستعرة من مثل «العماليق الحمر»، و «العماليق العظام»، والتى انفجرت على هيئة المستعرات العظام فتناثرت أشلاؤها فى صفحة الكون، ونزلت إلى الأرض على هيئة وابل من النيازك الحديدية، وبذلك أصبح من الثابت علميًا أن حديد الأرض قد أنزل إليها من السماء، وأن الحديد فى مجموعتنا الشمسية كلها قد أنزل كذلك إليها من السماء، وهى حقيقة لم يتوصل العلماء إلى فهمها إلا فى أواخر الخمسينيات من القرن العشرين، وقد جاء ذكرها فى سورة الحديد، ولا يمكن لعاقل أن يتصور ورودها فى القرآن الكريم الذى أنزل منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا على نبى أمى (ﷺ) وفى أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، يمكن أن يكون له من مصدر غير الله الخالق الذى أنزل هذا القرآن بعلمه، وأورد فيه مثل هذه الحقائق الكونية لتكون شاهدة إلى قيام الساعة بأن القرآن الكريم كلام الله الخالق، وأن سيدنا محمدًا (ﷺ) «ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى» *«تفسير الآيات الكونية فى القرآن»* الجزء الرابع، صفحات ١٣٩-١٤٣ - مكتبة الشروق الدولية.

إلى صناعة أسياخ نسلخ بها المبانى لا إلى أسلحة نحمى بها الحق ونصون العقائدَ!! فكيف يسود الأرض من لا يعى شيئًا من قوانينها؟] (١).

***

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) ﴾

أرسل الله نوحًا وإبراهيم ـ صلى الله عليهما وسلم ـ رسلاً لقوميهما، وجعل فى ذريتهما أنبياء أنزل عليهم كتبه، من توراة لزبور لإنجيل لقرآن ﴿ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ قال بعض المفسرين: فمن أقوامهم من اهتدى، وكثير منهم عصاة، وقال البعض الآخر: إن الضمير يعود على الذرية وعلى الأقوام ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا ﴾ تابعنا ﴿ عَلَىٰ آثَارِهِم ﴾ من بعدهم ﴿ بِرُسُلِنَا ﴾ مثل يعقوب وموسى وداود، صلى الله عليهم وسلم ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ وبعدهم جاء عيسى ابن مريم (عليه السلام)، وآتاه الله الإنجيل، وجعل الله فى قلوب من اتبعه حق الاتباع رأفة ورحمة، واتبع فريق منهم ﴿ رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ رهبان هى صيغة فعلان من رهب، وهى جمع راهب، وراهب أى خائف من الله، وقد ابتدع فريق من آباء الكنيسة أفكارًا ونظمًا للمعيشة على أساس أن الجسد شرّ ويجب إماتته واحتقار طلباته، من طعام وشراب ولباس، إلى زواج وما غير ذلك، فجاءت أفكارهم ضد الفطرة، ولذلك فسق كثير ممن فرضوا ذلك على أنفسهم، قديمًا وحديثًا ﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ ما فرضوها على أنفسهم إلا ابتغاء رضوان الله، ولكنهم ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ لم يصبروا عليها؛ لأنها تخالف فطرة الله التى فطر الناس عليها ﴿ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ ﴾ الذين آمنوا الإيمان الخالص من شوائب الشرك ﴿ أَجْرَهُمْ ﴾ الذى يستحقونه ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾.

***

(١) ونضيف للغزالى ـ رحمه الله ـ أن الولايات المتحدة وأوروبا يعملان المستحيل لمنع الدول العربية والإسلامية من تصنيع السلاح، ويريدان احتكار تسليحها حتى تصبح تحت تحكمهما وسيطرتهما، ويعملان المستحيل لنزع سلاح كلّ من لا يرضخ لهما، فى الوقت الذى تنفق فيه الولايات المتحدة تريليونات الدولارات فى التسليح، وفى الأبحاث العلمية فى كل مجالات التكنولوچيا حتى تسبق العالم فى السلاح، ومن تلك الأبحاث، تتقدم الصناعات المدنية الأمريكية فى مختلف المجالات، فى علوم الحاسبات والشبكة والاتصالات، وعلوم الطيران والفضاء، وعلوم الأدوية والطب والكيماويات، وغيرها.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨) لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ من أهل الكتاب ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ نصيبًا لإيمانكم بالرسل السابقين، ونصيبًا لإيمانكم بخاتم النبيين ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ فى حياتكم الدنيا وفى الآخرة، ويغفر لكم ذنوبكم ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ولقد كان أهل الكتاب يرون أن الله فضلهم على جميع الخلق، فقال تعالى ﴿ لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ حتى يعلم أهل الكتاب أن فضل الله ليس مضمونًا لديهم ولا حكرًا عليهم كما يقولون وكما يحبون، إنما ﴿ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾ من آمن برسله وعمل صالحًا، وليس مَن تعصب وحسد ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

***